الذخيرة

فى محاسن أهل الجزيرة
لابن بسّام

كان حظ ابن بسّام من الأيام عجيبًا !

اتخذ التاريخ هواية وحرفة ، فسد بكتابه القيم فراغًا ، وأذكر منسيٌّ ، وسجل أحداثًا ، ثم ضن عليه التاريخ بسطور قليلة ، يلاحقه فيها طفلا يدرج ، أو صبيًّا يتعلم ، أو ناشئًا يختلف إلى حلق الدرس ، أو منشئًا يحمل قلمه ويتأبط ورقه ، ثم يمضى من مدينة إلى مدينة طلبًا للأمن ، وبحثًا عن ركن حصين يلوذ به ـ ويخلو فيه إلى نفسه ، فتلهمه شيئًا يقوله ، أو علمًا يذيعه بين الناس .

بلى ! .. إن ابن بسّام مازال حتى اللحظة يحيا بيننا بلا تاريخ . ولقد عاش فى الأندلس أخصب أيامه ، وشهد أروع التحاماته ، وعبر مع ساكنيه الفترة الحرجة من تاريخه ، وسجل دقائق ما رأى وماسمع ، وجاء من بعده قوم نقلوا عنه ، وانتفعوا بعلمه ، ثم ضنوا عليه بكلمات نتبين من خلالها شخصية هذا العالم الجليل .

أكان تحاملا عليه من مواطنيه ؟ أكان غضًّا من شأنه وتهوينًا بكتبه ؟ أكان حسدًا يدفعهم إلى السكوت حيث يتطلب المقام أن يذكر ، والعبور به هرولة حيث يطيب التأنى والوقوف ؟ لا أظن شيئًا من ذلك قد حدث . فالرجل رى قلمه دفاعًا عن وطنه ، وسخر فكره للتمجيد بمفاخر قومه ، كتب « الذخيرة » والأحداث تأخذ بخناق المسلمين من كل فج ، ساعتها كان القوم فى حاجة إلى من يذكرهم بأمجادهم ، وإلى تمجيد من يصنع لهم تاريخا .

الأقرب إلى الظن إذن أن يكون له تاريخ مكتوب ، وتراجم وافرة ، فأنه حظى من أخلافه بما هو أهل له من ذكر وتقدير ، لكن الجوائح العصوف لم تذهب بالأندلس وحده ، وإنما ذهبت بالجزء الأكبر من تراثه ، استوى رمادًا بين لهب

الدخان المتصاعد بأمر المطران الأعظم ، فى « باب الرملة » أكبر ميادين غرناطة ، أو أكلته الرطوبة مطمورًا فى بطن الأرض . وقد عز عليه الأمن على ظهرها ، أو ذهب بددًا تحت الجدر وراءها ، فلم يبق بعد ذلك كله إلا عناوين مؤلفات وأسماء كتاب ، تجرى بين أيدينا وتحت أعيننا فى مظان التاريخ المختلفة ، نأمل أن نلقاها يومًا ، وهو أمل لم يكن دوما مجرد أحلام تذروها الرياح ، وفى يقظة المغرب الفكرية ، وذخائره المكنوزة ، وقد أحسن الحفاظ عليها عبر الأيام الكالحة ، واجتاز بها مهامه الخطر العاتية ، مايجعل فى نشرها تبديلا لمسلمات كثيرة ، وتغييرًا لأفكار ثابتة ، وغدًا مشرقًا للغرب الإسلامى كله .

لم يكن حظ ابن بسَّام فى المؤلفات الحديثة بأحسن حالا منه فى القديم ، فكتابه الرائع « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » والذى سنعرض له فيما بعد ، لما يطبع كاملاً إلّا أخيرًا ، بل غُمَّ أمره على الناس فخلطوا بينه وبين البسَّامى ، أبى الحسن على بن محمد ، الشاعر البغدادى المتوفى سنة ثلاث وثلاثمائة ، ونقلوا ترجمة هذا الشاعر من ابن خلكان وألصقوها كما هى بصاحب الذخيرة ، وحتى نشر المجلد الأول من كتاب « الذخيرة » عام ١٩٣٩ ، جاز الخطأ على واضعى فهارس دار الكتب المصرية فلم يفطنوا لهذا الخطأ الفاحش . فقالوا إن الذخيرة هى لابن لابن بسَّام المعروف بالبسامى الشاعر ! وأسوأ منه ماأباحه النساخ لأنفسهم حين قيدوا علمه . فجاءت مخطوطاته الموجودة بدار الكتب المصرية مشوّهة محرفة ، ماكان منها مكتوبًا بخط مغربى أو مانقل عنها برسم مصرى .

للقاء ابن بسَّام والتعرف إليه لم يبق أمامنا غير طريق وحيد ، صعب المرتقى كثير المزالق والمتاهات ، ظنى النتائج والدلالة ، وما إلى غيره سبيل : أن نتخذ من عصر الرجل مادة لتصوره ، ومن بيئته مجهرًا لتبينه ، ومن فكره شاهدًا على خطاه ، وبشىء من التأمل والاستبطان والمقارنة ، وفطنة المؤمن وحذره ، نبنى للرجل حياة وتاريخًا وسيرة ، إن لم تكن كل مايرجى ، فهى شمعة مضيئة ، على درب حياته الطويل والضبيب ، وإضاءة شمعة أكثر إسهامًا فى توضيح جوانب حياته من نعن الظلام والاستسلام لواقع الحال .

أى عصور الأندلس عاش ابن بسَّام ؟

على نحو قريب من اليقين فارق أديبنا دنيا الناس إلى رحاب الله فى نهاية عام

١١٤٧ م أو مع بداية لاحقة ١١٤٨ م ، وأبعد تاريخ فى حياته نعرفه قبل ذلك التاريخ هو عام ١٠٨٤ عندما غادر شنترين إلى إشبونة ، أو لشبونة ، عاصمة البرتغال فى عالمنا الحديث ، ولابد أنه قام برحلته فتى السن قوى الساعد ، قارب العشرين أو جاوزها بقليل ، ومع هذه اللمحة نستطيع أن نتصور مجيئه إلى الحياة ، فى مطلع النصف الثانى من القرن الحادى عشر ، على نحو تخمينى لايضارّ معه شىء أن يتأخر عامًا أو يسبق الموعد المحدد بأعوام ، ولقد عُمّر طويلا ، وامتدت حياته حتى مست آخر النصف الأول من القرن الثانى عشر ، أعوام قاربت لتسعين ، ولكنها فى ميزان أحداث الأندلس تفوق فى مضمونها النفسى والشعورى وعمقها التاريخى ، امتدادها المادى زمنا وعددًا .

فى ذلك العصر أو على مشارفه انتثر عقد الأندلس ، وتفرق شمله ، وتوزعته دويلات أشتات ، فضعف أمره سياسيًّا ، وسار القهقرى أمام تقدم الصارى ، وضاع فى نهاية الأمر ، وكان الاستثناء الوحيد الواضح من القاعدة التى تقرر : « حيثما غرست الحضارة الإسلامية تأصلت جذورها إلى الأبد » .

كان الفقهاء فى الأندلس أضيق الناس بما يجرى فى جنبات شبه الجزيرة ، رأوا فى الترف الغالى انحلالا يميت روح المقاومة فى بلد يتخطفه العدو من كل جانب ، وفى الفرقة والخلاف والتخاذل تبديدًا لقواه وتضييعًا لأمره ، وكان مايجرى داخل بيوت الأمراء والكبار مما لايرضى عنه الدين ، وتأباه قواعد الشريعة . وكانت الحضارة قد أناخت على البلد لابخيرها وحده وإنما بكل آثامها أيضًا ، من حب للمال وحرص عليه ، وإغراق فى الإثم ومجاهرة به ، وتحلّل من التقاليد ، وتخفّف من الوقار . فاستعان الأمراء على بعضهم البعض بخصوم لهم فى الدين والوطن ، وتآمر الأبناء على آبائهم ، وذبح الخلفاء فلذات أكبادهم ، ودفع الأمراء الجزية لخصومهم من النصارى . وبعض هذا الخلاف كان طابع العصر . لكنه يعكس ملامح مجتمع ضائع . يسرف فى تبديد قواه ، ويبعثر ثرواته نشوان لا يحس بما يجرى حوله ، فلا عجب أن يعبر المضيق وفد من خيرة فقهاء الأندلس . يمثله قضاة بطليوس وغرناطة وقرطبة وإشبيلية ، ومعهم الوزير أبو بكر محمد ابن أبى الوليد بن زيدون نائبين عن أمراء بلادهم ، وهى كبريات المدن التى بقيت فى حوزة المسلمين ، وأن يتوجه إلى يوسف بن تاشفين يستحثه إنقاذ الأندلس مما

أصابها ومما يوشك أن يطبق عليها [١] .

بل كان عجيبًا . ومريبًا أيضًا . ألا يحدث هذا . وأن يقف أناس رسالتهم الحفاظ على دولة الإسلام وتقويم مااعوج من سلوك الحكام . موقف المستهين يتابع الأحداث متواكلا لايسهم فى دفعها أو تبديلها . أو يجارى من بيدهم السلطة . يبارك خطاعم حقًا كانت أو انحرفت عن جادة الصواب . لو سكتوا لكان موقف التاريخ منهم صارمًا وقاصما !

لم يخيّب ابن تاشفين لمستنجديه أملا ، فعبر المضيق إلى الأندلس ، وأنقذ الإسلام عى بطحاء شبه الجزيرة من هزيمة محققة ، وحولها إلى انتصار ساحق فى وقعة الزلاقة ، فى ٢٣ من أكتوبر من عام ١٠٨٦ ، هناك محا جيش ألفونسو السادس محوا ، وجرح ألفونسو نفسه ، وكان يمكن ليوسف أن يمضى بالنصر إلى غايته فيلاحق عدوه . ويهاجمه فى عقر داره . لكن أخبارًا من سبتة حملها إليه البريد بموت ابنه فعاد من فوره . مما مكّن لألفونسو السادس أن يسترد أنفاسه اللاهثة ويستجمع بقايا قواه المبعثرة .

لكن إمبراطورية المرابطين الفتية الشابة ، لم تلبث أن تعرضت لأمراض الجماعات . وداء الدول ، فأصابها ما أصاب دويلات ملوك الطوائف قبلها ، ووقعوا فيما عابوه على أسلافهم ، مما أوجزه المؤرخ العظيم عبد الواحد المراكشى : « واختلت حال أمير المسلمين رحمه الله بعد الخمسمائة اختلالا شديدًا . ظهرت فى بلاده مناكر كثيرة ، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد . وعواهم الاستبداد ، وانتهوا فى ذلك إلى التصريح ، فصار كل منهم يصرح بأنه خير من علىّ أمير المسلمين ، وأحق بالأمر منه ، واستولى النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور ، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة

---

(١) ابى الأبار ، الحلة السيراء ، جـ ٢ ص ٩٨ - ٩٩ ، القاهرة ١٩٦٤ - مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة ، ص ١٤٥ ، نشر وتحقيق أ . ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٥٥ - وقارنه بما ورد فى : عبد الواحد المراكشى ، المعجب فى أخبار المغرب ، ص ١٣٠ ، الطبعة الأولى ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٣٦٨ هـ = ١٩٤٩ م ، حيث يرى أن الذى جاز البحر قاصداً مدينة مراكش لمقابلة ابن تاشفين ابن المعتمد بن عباد نفسه ، ويرى دوزى أن المؤلفين الذين يرون أن المعتمد نفسه هو الذى ذهب إلى مراكش يخلطون بين حملة ابن تاشفين الأولى وحملته الثانية . انظر :

Dozy Reinhart,: Histoire des Musulmans d'Espagne, trad. espsgnol, vol. II. p. 127, bueno Aires, 1946.

مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور ، وأمير المسلمين فى ذلك كله يتزّيد تغافله ، ويقوى ضعفه وقنع باسم إمرة المسلمين ، وما يرفع إليه من الخراج ، وعكف على العبادة والتبتل ، فكان يقوم الليل ويصوم النهار ، مشتهرًا عنه ذلك ، وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال ، فاختل لذلك عمله كثير من بلاد الأندلس ، وكادت تعود إلى حالها الأولى ، لاسيما منذ قامت دعوة ابن تومرت بالسوس[1] » .

قُدّرَ لابن بسّام أن يشهد ، شيخًا معمرًا ، سقوط إمبراطورية المرابطين وقيام دولة الموحدين ، وأن يراهم وهو يدلف إلى العالم الثانى يستولون على مراكش فى المغرب ، وإشبيلية فى الأندلس ، وأن يشهد مع هذا التحوّل القلّب سقوط شنترين وطنه فى يد ألفونسو السادس من جديد ، واستقلال ابن مردنيش ببلنسية ، واحتلال النصارى للمرية[2] !

* * *

كان **أدب العصر** الذى عاشه ابن بسّام انعكاسًا صادقًا لحياة أهله بكل مافيها من تناقضات ، الأبيقوريون يعبون مما تتيحه لهم الفرص ، ثراء عاجلا ، وحياة صاخبة ، يشربون ويسمرون ويطربون ، وعلى الدنيا العفاء ، ويعبرون عن أحاسيسهم فى شعر فاجر ، وأدب داعر ، غزلا بالمذكر ، أو تجاهرًا بالمعاصى ، أو دعوة إلى التحلل . والجادون فى دروب الحياة يضيقون بما حولهم ، عُمّيَتْ عليهم المسالك ، وضاقت بهم الحيلة ، يرون على المدى البعيد مجتمعًا ينحدر نحو الهاوية ، لايكاد يتبين النهاية ، أغشته الحياة فهو لايبصر ماحوله ، ويعبرون عن ذلك فى أدب ممرور تارة وثائر تارة أخرى ، وأحيانًا تنفجر على شباة أقلامهم فلسفة تحاول أن تزن الحياة ، تستخرج منها مكامن العظة ، وتقنن لتطورها ، علّ فى علمهم مايوقظ غافلا ، ويهدى ضالا .

---

(١) على غير إجماع المؤرخين يجعل عبد الواحد المراكشى فى المعجب (ص ١٧٠ و ١٧٧) وفاة يوسف ابن تاشفين ، وتولى ابنه أبى الحسن على بن يوسف ، عام ٤٩٣ هـ = ١٠٩٩ م بينما تجعلها البقية فى عام ٥٠٠ هـ = ١١٠٦ م ، ومن هنا فإن إشارته فى النص إلى عام الخمسمائة تحتاج إلى تحرير . انظر : ابن أبى زرع ، نخب تاريخية جامعة لأخبار المغرب الأقصى ، ص ٣٢ ، ٣٣ . نشرأ . ليفى بروفنسال ، باريس ١٩٤٨ ، وابن خلدون كتاب العبر ديوان المبتدأ أو الخبر ، جـ ٦ ص ١٨٨ ، بيروت ١٨٧٩ م .

(٢) الأحداث الأخيرة وقعت فى نفس العام الذى توفى فيه ابن بسام ، راجع : المعجب ص ٢٠٢ و ٢٥٧ – دوزى ، تاريخ مسلمى الأندلس ، جـ ٢ ص ٤٧٥ وما بعدها .

كان الأدباء ينعمون بالرعاية والحظوة ، تسرف لهم الدولة فى الجزاء ، وتسخو عليهم فى العطاء ، وبيت من الشعر يدر من الخير مالا تدره تجارة نافقة ، أو صناعة محكمة ، إلا أن حرية الأديب فى الجانب السياسى منها ، كان يحدُّها رضا الحاكم وعواطف لعامة ، وشهد عصرنا أول خطى الانحدار الغريب الذى سوف يبلغ غايته فى ٢ يناير ١٤٩٢ ، أعنى بداية إحراق الكتب ، جلبًا لرضا العامة ، أو نكاية فى الأديب ، فأحرق **ابن عباد** كتب **ابن حزم** العظيم ، فلم يأبه هذا لفعله وإنما أنشده :

فإن تحرقوا القرطاسَ لاتحرقوا الذى ... تضمَّنه القرطاسُ بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلّتْ ركائبى ... وينزل إنْ أنزلْ ويدفنُ فى قبرى
دعونى من إحراق رقٍ وكاغدٍ ... وقولوا بعلمٍ كى يرى الناس مَن يدرى
وإلّا فعودوا فى المكاتب بدأة ... فكم دون ماتبغون لله من ستر[1]

وأحرق **المنصور بن أبى عامر** كتب الفلسفة والفلك ، برغم أنه مال اليها صدر حياته ، وكان لأهلها موقرًا ، لكن مطالب السياسة قبل رغائب العقل ، وأحرق المرابطون كتب **الغزالى** . جاء فى الرسالة التى وجهها **تاشفين بن على بن تاشفين** إلى أهل بلنسية بعد استعادة المرابطين لها فى شعبان من عام ٤٩٥ هـ = مايو ١١٠٢ م : « واعلموا رحمكم الله أن مدار الفتيا ومجرى الأحكام والشورى فى الحضر والبدو ، على ما اتفق السلف الصالح ، رحمهم الله ، من الاقتصار على مذهب إمام دار الهجرة أبى عبد الله مالك بن أنس ، رضى الله عنه ، فلا عدول لقاض ولامفت عن مذهبه ، ولا يأخذ فى تحليل ولا تحريم إلا به ، ومن حاد على رأيه بفتو ه ، ومال من الأئمة إلى سواه ، فقد ركب رأسه واتبع هواه ، ومتى عثرتم على كتاب بدعة ، وخاصة – وفقكم الله – كتب أبى حامد الغزالى فليتتبع أثرها ، وليقطع بالحرق المتتابع خبرها ، ويبحث عليها ، وتغلظ الأيمان على من يتهم بكتمانها[2] » .

كان عصر بن بسام عصر الثقافة الأندلسية المزدهرة ، فى كل أبعادها ، وشتى

---

(١) انظر : د . الطاهر أحمد مكى ، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، الفصل : شاهد العصر ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٢ .

(٢) مخطوط رقم ٥٣٨ ، بمكتبة الأسكوريال ، ورقة ١٢ ب .

فروعها ، ويكفى أن نعرف أن من الأدباء الذين ناكبوه رحلة الحياة فى تلك الفترة من الزمن ، الفتح بن خاقان (اغتيل فى مراكش ٥٢٩ هـ = ١١٣٤ م) ، ومن الشعراء ابن قزمان (ولد ٤٨٨ هـ = ١٠٩٥م) وابن اللبانة (ت ٥٠٧ هـ = ١١١٣ م) وابن عبدون (ت ٥٢٩ هـ = ١١٣٤ م) والأعمى التطيلى (ت ٥٢٠ هـ = ١١٢٦ م) ، وابن خفاجة (ت ٥٣٣ هـ = ١١٣٨م) ولادة بنت المستكفى (ت ٤٨٤ هـ = ١٠٩١ م) ، وابن عمار (ت ٤٧٧ هـ = ١٠٨٤ م) وغيرهم .

ومن اللغويين ابن سيده (ت ٤٥٨ هـ = ١٠٦٦ م) ، والأعلم الشنتمرى (ت ٤٧٦ هـ = ١٠٨٣ م) .

ومن الفقهاء أبو الوليد الباجى (ت ٤٧٣ هـ = ١٠٨١ م) ، و بن الطلاع (ت ٤٩٧ هـ = ١١٠٣ م) .

ومن الجغرافيين أبو عبيدة البكرى (ت ٤٨٧ هـ = ١٠٩٤ م) .

ومن المؤرخين صاعد الطليطى (ت ٤٦٢ أو ٤٦٣ هـ = ١٠٧٠ م) ، وابن حيان (ت ٤٦٩ هـ = ١٠٧٦ م) ، والطرطوشى (ت ٥٢٠ هـ = ١١٢٦ م) .

ومن الفلاسفة ابن رشد (ولد ٥٢٦ هـ = ١١٣٢ م) ، وابن بجة (توفى ٥٣٣ هـ = ١١٣٨ م) .

تلك كانت بيئة ابن بسام الوسيعة وعالمه العريض ، تغذّى أحداثها أثرا أو عاشها واقعًا ، وتأثر بها صدى أو سمعها حكايات ، هدهدة من أمه ، أو قصصا من لداته ، أو علمًا من أستاذه ، أو اكتشفها بنفسه وهو يصارع موج الأحداث العالى يكاد يطويه ، ويوشك معه أن يضيع .

* * *

ولد ابن بسام فى شنترين وإليها يُنسب ، ولايعرف للبلدة تاريخ قبل أن يصلها الإسلام ، ربما كانت واحدة من آلاف القرى المتناثرة على امتداد الأندلس كله ، عرضه وطوله ، ترقد فى زوايا الإهمال والنسيان حتى يلمع بها عظيم ، أو تجرى فى عرصاتها وقعة ، فيفسح لها التاريخ من صفحاته مكانًا .

كذلك تنقصنا التفاصيل لحملة قام بها عبد العزيز بن موسى بن نصير نفسه ،

بعد زمن قليل من توليه إمارة إسبانيا (٧١٤ هـ = ٧١٦م) ، استولى فيها على المدينة ، إلى جانب يابرة Evora وقلمرية Coimbra ولو أنه فيما يبدو كان ينفذ أوامر أسرّ بها إليه أبوه قبل رحلته إلى المشرق .

تقع مدينة شنترين ، وهى الآن فى البرتغال ويطلق عليها Santarem على الشاطئ الأيمن من نهر تاجه (أوتاجو) Tajo وهى مفتاح واديه ، وموقعها إلى الشمال الشرقى من إشبونة Lisboa وبينهما ثمانون ميلا ، ، وظلت فى يد العرب إلى أن تنازل عنها **المتوكل** ملك بطليوس عام ٤٨٦ هـ = ١٠٩٣ م ، مع إشبونة وشنترين ، **إلى ألفونسو السادس** ملك **ليون** فاستولى عليها ، بلا حرب ، وخسرها المسلمون بلا هزيمة ، وقدمها الملك النصرانى هدية إلى صهره ريموندو د بورجونيا كنت جليقية ، وبقيت فى أيديهم حتى استردها المرابطون عام ٥٠٤ هـ = ١١١١ م ، بقيادة الأمير **سير بن أبى بكر بن تاشفين** ، الذى أرسل من داخل المدينة بخبر فتحها إلى أمير المسلمين أبى الحسن على بن يوسف بن تاشفين ، فى رسالة ضافية دبجها يراع الوزير الشاعر أبى محمد عبد المجيد **بن عبدون** ، وأورد عبد الواحد المراكشى نصها كاملا . وبقيت فى أيديهم حتى انتزعها منهم ثانية **إنريكيث** ملك البرتغال عام ٥٤٣ هـ = ١١٤٨ م ، وقد حاول الموحدون بقيادة أميرهم أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن استرجاع المدينة عام ٥٧٩ هـ = ١١٨٣ م ، لكنهم فشلوا نتيجة خدعة وقعوا فيها ، على الرغم من قوتهم وضعف عدوهم ، وقد أعطى المراكشى تفصيلات وافية عن حصارهم للمدينة وعجزهم عن استردادها[1] .

كانت شنترين - كما وصفها ابن عبدون - أحصن المعاقل للمشركين وأثبت المعاقل على المسلمين ، أرحب المدن أمدًا للعيون ، وأخصبها بلدًا فى السنين ، لايرميها الخصب ولايتخطاها ، ولايرومها الجدب ولايتعاطاها ، فرعها شامخة ، وعروتها راسخة ، زاهرة ترف أنداؤها ، ناضرة تشف أضواؤها ، اتخذها ملوك

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٥ ص ٣٠٠ ، القاهرة ١٩٠٦ . وانظر : المعجب ، ص ١٦٥ وما بعده ، وفى ص ٢٥٧ ، هامش رقم ١ ، ذكر الأستاذ محمد سعيد العريان محقق الكتاب أن الذى ملكها « ألفونسو السادس ملك قشتالة » ، والحق أنه ألفونسو إنريكيث ملك البرتغال ، أما ألفونسو السادس فقد توفى عم ٥٠٣ هـ - ١١٠٩ م ، أى قبل استرداد المدينة بأربعين عامًا كاملة .

النصارى بعد الاستيلاء عليها مركزًا للهجوم عل المدن الإسلامية فى غربى البرتغال ، فمنها احتلوا باجة ، ومنها كانت تخرج الطلائع لقطع خطوط تموين حملات الموحدين .

وكانت تكوّن مع يابرة وأشبونة وحدة قضائية ، يُرسل لها القاضى من قرطبة على أيام الإمارة أو الخلافة ، أو يعينه الأمير فى بطليوس ، على أيام بنى الأفطس ، وكان عامل أشبونة يتردد على شنترين أو يعين لها عاملا من قبله . والمدن الثلاث كانت تتبع كورة باجة فى التقسيم الإدارى للأندلس ، ويخطئ بعض المؤرخين المحدثين فيخلطون بين شنترين وشنتمرية Santa Maria وينسبون ابن بسام إلى الأخيرة فيقولون الشنتمرى[1] وهى ، تطلق على أكثر من موضع فى الأندلس ، واحدة تقع فى الغرب Algarbe جنوب غربى الأندلس ، وتسمى أحيانا شنتمرية الغرب تمييزًا لها عن غيرها ، وبها ساد بنو هارون زمنًا ، من ١٠٢٦ م إلى ١٠٤١ م ، ثم انضموا إلى إشبيلية عام ١٠٥٢ ، ويطلق عليها اسم فارو Faro وهى عاصمة اكشونبة Ocsonaba فى البرتغال . وثانية تقع قريبا من قرطبة ، وما تزال قائمة حتى الآن ، وتبعد عنها بستة عشر كيلو مترًا ، وثالثة تقع قريبا من بتسية ، ويميزونها أحيانًا باسم شنتمرية الشرق .

والمعلومات التى بين أيدينا عن الحياة العلمية فى هذا الجانب من الأندلس قليلة ، ويبدو أن الحركة الأدبية فيها بدأت متأخرة ، وحتى مجىء عبد الرحمن الداخل ١٣٨ هـ = ٧٥٥ م لم تكن الثقافة الإسلامية قد تأصلت فى هذه المنطقة ، وكان مستعربوها أبطأ فى اعتناق الإسلام ، واتخاذ العربية لغة ، والانصهار فى المجتمع الجديد ، فلما استتب الأمر ، وتكونت الدولة ، وآتى الهدوء ثماره ، كانت أبعد من غيرها عن قرطبة مركز الثقل الثقافى ، وكان سكانها أقل الأندلسيين رحلة إلى المشرق ، وأضواء التاريخ عليهم أخفت ، ومن هنا كان حظهم من المؤلفات متواضعا للغاية ، فلم يجد ابن الفرضى فى كتابه تاريخ علماء الأندلس ، أو الحميدى فى كتابه « جذوة المقتبس » من يستحق ترجمة ، أو لعلهما لم يعرفا ، من شنترين أو

---

(١) من هؤلاء بطرس البستانى فى كتابه « أدباء العرب فى الأندلس وعصر الانبعاث : حياتهم - آثارهم ، نقد آثارهم » ص ١٠٦ ، الطبعة الثالثة ، مكتبة صادر ، بيروت ، بلا تاريخ .

أشبونة ، وعندما عرض الأخير للمدينة الثانية عرفها بأنها من قرى الأندلس[١] ، فإذا كانت الإشبونة كذلك ، وكانت مقر العامل منها يتردد على شنترين أو يعين لها من يقيم بأمرها ، كان لنا أن نتصور ما كانت عليه شنترين نفسها .

فلما انقسم الأندلس إلى إمارات ، لكلٍّ عاصمة وفى كلٍّ أمير ، وبدأ جاه قرطبة السياسى والثقافى يتوزّع على مدن كثيرة ، أصاب الغرب الأندلسى نصيب ، وذهب الجنوب منه بأغلب هذا النصيب وأيسره ، فإذا كان الرواة يذكرون عن شلب ن أى فلاح بها يستطيع وراء محراثه أن يقرض الشعر ، وإذا كانت يابرة أهدت عالم الشعر ابن عبدون ، وباجة عالم التشريع أبا الوليد الباجى ، وبطليوس ابن السيد اللغوى النحوى ، فلا يكاد يذكر من شعراء شنترين غير أبى القاسم خلف ين يوسف بن فرتون الأبرشى وكان على حد تعبير صاحب البغية وحيد عصره فى علم اللسان ، لكننا نلحظ أن إقامته لم تكن فى شنترين نفسها ، فقد توفى فى قرطبة (ذى القعدة ٥٣٢ هـ = ١١٣٧ م) وما روى لنا من شعره قليل ، وإن كان يكفى للحكم على مكانته بأنه متوسط الشعر ، مجرد نظام ، ولعل هذا ماجعل ابن بسام نفسه ، وكان بمواطنيه حفيًّا ، يعرض عن ذكره برغم أنه من معاصريه ، فمن شعره :

رأيت ثلاثة تحكى ثلاثًا إذا ما كنت فى التشبيه تنصفُ
فتايـ[٢] النيلُ منفعة وحسنًا ومصرُ شنترين ، وأنت يوسف[٣]

ولم يترجم ابن بسام فى موسوعته لغير اثنين من مواطنيه : الأديب أبى عمر بن كوثر . والأديب أبى محمد بن سارة ، والأول اختص ابن بسام بالترجمة له فيما أعلم ، فلا نجد له فى غير الذخيرة ذكرًا ، وكان الثانى أَسَيْرَ ذكرًا ، وأعلى شعرًا ، سكن إشبيلية وتعيش فيها من الوراقة ، وجاب الأندلس شرقا وغربًا . وجمع بين

---

(١) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٢٥٧ ، ترجمة رقم ٦٠٧ ، القاهرة ١٩٥٣ ، الضبى : بغية الملتمس ، ت ١٠٢٧ ، مدريد ١٨٨٥ م .

(٢) تايو إشارة إلى نهر Tajo وينطق فى العربية تاجه وتاجو وتايو ، فالجيم المعطشة تتحول أحيانا إلى ياء فى العربية ، لأنها حتى الآن تنطق وسطًا بين الجيم العربية والياء ، وقد بقى النطق « تاجو » كما هو فى البرتغالية ، أما فى الاسبانية فأصبحت الجيم تنطق خاء فيقال « تاخو » .

(٣) ابن الأبار : المقتضب من كتاب تحفة القادم ، تحقيق ابراهيم الإبيارى ، ص ١٣ ، القاهرة ١٩٥٧ ، وانظر ترجمته فى : الصلة لابن بشكوال ، الترجمة رقم ٣٩٩ - نفح الطيب جـ ٥ ص ٢٤٩ طبعة محيى الدين - بغية الملتمس الترجمة رقم ٧٢٢ .

الشعر والأدب ، وتوفى عام ٥١٧ هـ = ١١٢٣ م[١] . وأغلب الشنترينيين ، ممن بين أيدينا تراجمهم ، عاشوا حياتهم أو جلها بعيدا عن شنترين ، فى إشبلية أو قرطبة أو طليطلة أو غيرها ، سعيًا وراء الرزق ، أو تجافيًا عن الخطر .

ولو مدّ الله فى أجل الأندلس ، وبقى غربيه فى قبضة المسلمين ، ولم يذهب الترف بملوك الطوائف ، ثم بالأندلس كله فيما بعد ، لربما ازدهرت الحياة الثقافية فيه ، على نحو أوسع وأكمل مما نعرف ، فقد كان غربى الأندلس من تعصيب بنى الأفطس ، واتخذ هؤلاء بطليوس عاصمة لهم ، وكان **المظفَّر** ميرهم (ت ٤٦٠ هـ = ١٠٦٧ م) أحرص الناس على جمع علوم الأدب من النحو والشعر ونوادر الاخبار وعيون التاريخ ، وانتخب مما اجتمع له من ذلك كتابًا كبيرا ، يحتوى على فنون وعلوم ومغاز وسير ومثل وخبر ، وجميع مايختص به علم الأدب ، فى خمسين مجلدًا ، طبقًا لرواية المقرىّ فى نفح الطيب ، أو فى عشرة أجزاء طبقًا لرواية عبد الواحد المراكشى ، نحا فيه منحى ابن قتيبة فى كتابه « عيون الأخبار » وأسماه « المظفرى » نسبة إليه ، وقرأ عبد الواحد المراكشى أغلب أجزائه وأفاد منه . وضم بلاطه ابن عبد البر أعلم أهل غرب الأندلس فى زمانه بالحديث (ت ٤٦٣ هـ = ١٠٧٠ م) ، وإليه أهدى مجموع مختاراته لفريد المسمى « زينة المجالس » فى ثلاثة مجلدات ، وله تولى قضاء الإشبونة وشنترين .

ولم يكن **المتوكل** أقل احتفاء بالأدب من أبيه ، ذو قدم راسخة فى صناعة النظم والنثر ، وأورد له ابن الأبار طائفة حسنة من أشعاره[٢] ، وكان ابنه الأصغر مقيم الدولة عاملا على شنترين عند قدوم المرابطين إلى الأندلس وزوال دولتهم ، وكان فى بطليوس كابن عباد فى إشبيلية ، يتنافسان فى الاحتفاء بالأدب ، والإغداق على الأدباء ، وإذا عرف بلاط العبابدة من الشعراء المعتمد وابن عمار وابن حمديس الصقلى ، فقد شُهر بلاط بطليوس بالوزير الكاتب الشاعر أبى محمد عبد المجيد بن عبدون ، من يابرة ، وكان شاعرًا قادرًا ، يحتذى نهج القدماء ، ورائيته فى رثاء بنى الأفطس لما أصابهم على أيدى المرابطين ، زاخرة بالمعرف ،

---

(١) انظر ترجمته فى القسم الثانى الذخيرة الورقة ١٦٢ - ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب ، جـ ١ ص ٤١٩ - رايات المبرزين وغايات المميزين ، ص ٣٥ تحقيق غرسية غومث ، مدريد ١٩٤٢ .

(٢) الحلة السيراء ، جـ ٢ ص ٩٦ وما بعدها .

رصينة الصياغة ، وإن كانت فاترة الروح[١] .

تلك هى البيئة الثقافية اللصيقة بابن بسام ، فى مدينته وما جاورها ، فى دولته قبل أن تتفتح عيناه على الحياة ، وفيها وهو مقبل عليها . يعب من روافدها ماواتته الفرصة ، يقرأ ويدرس ويجادل العلماء !

* * *

لم يحدثنا المؤرخون عن مولد ابن بسام ونشأته ، ولا عن شيوخه وكيف تعلم ، لكننا نعرف يقينا برواية المقرى أنه توفى عام ٥٤٢ هـ = ١١٤٨ م[٢] ، وأنه نشأ فى بيت محتد وحسب ، صده نسبه عن الكسب المتدنى ، وأغناه ماورث عن التقلب فى مناكب الأرض ، سعيا وراء الرزق[٣] ، وكان فى النؤابة من قومه ، فإذا ذهب الوزير أبو محمد عبد المجيد بن عبدون فى جملة من أصحاب المتوكل عند زيارته لشنترين ، لقى بن بسام وتحدث إليه وسامره ومازحه على نحو لايكون إلا بين المتساويَيْن من الرفقاء . فى « أول مجلس اجتمعت معه فيه ، وسمع بعض الإخوان يدعونى باسمى ، فقال لى : أنت على ابن بسام حقا ؟ قلت : نعم ، قال : أو تهجو حتى الآن أباك وأخاك جعفرًا قلت له : وأنت أيضًا عبد المجيد ؟ قال : أجل ، قلت : وحتى الآن فيك ابن مناذر يتغزل ؟ فضحك مَنْ حضر لهذا الجواب الحاضر »[٤] .

---

(١) أورد عبد الواحد المراكشى نص القصيدة كاملا فى كتابه المعجب ، ص ٧٦ وما بعدها – وأورد . المغرب بعضًا منها ، جـ ١ ص ٣٧٦ – وأورد ابن الأبار فى الحلة السيراء مطلع القصيدة وآخر بيتين منها جـ ٢ ص ١٠٣ ، وقد قام أبو القاسم عبد الملك بن عبد الله المعروف بابن بدرون الحضرمى ، من مدينة شلب ، فى البرتغال المعاصر , Silves والمتوفى قريبًا من عام ٦٠٨ هـ = ١٢١١ م بشرح القصيدة شرحًا تاريخيًا وافيًا فى كتاب أسماه : « كمامة الزهر وصدفة الدر » وقد طبع دوزى القصيدة مع شرحها ونشرها عام ١٨٤٦ ، وطبعت مع شرحها فى مصر بمطبعة السعادة عام ١٣٤٠ هـ ، وأقوم الآن بتحقيقها على ما ظهر لها من مخطوطات جديدة .

(٢) المقرى ، نفح الطيب جـ ٢ ص ٣٠٩ طبع أوربا .

(٣) الذخيرة ، ١ مجلد ١ ، ص ٨ ، طبع القاهرة ، ١٣٥٨٨ هـ = ١٩٣٩ م .

(٤) المرجع السابق ص ١٢٠ – ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ ٢ ص ١٠٦ . وتشير الممازحة هنا إلى ما بين ابن بسام الأندلسى وابن بسام البغدادى من توافق فى الأسماء يؤدى إلى اللبس أحيانًا ، واسم الشاعر البغدادى كاملا : على بن محمد بن نصر بن منصور بن بسام ، شاعر هجاء لم يسلم من لسانه أحد ، حتى أبوه وأخوه وصحابه ، وله من المؤلفات : « أخبار عمر بن أبى ربيعة » و « المعاقرون » و « مناقضات الشعراء » و « أخبار الأحوص » انظر ترجمته فى : ابن شاكر الكتبى ، فوات الوفيات ، جـ ٢ ص ١٦٧ ت ٣١٤ ، القاهرة ١٩٥٠ .

وكانت زيارة ابن عبدون للمدينة بعد أن تولى الكتابه للمتوكل صاحب بطليموس عام ٤٧٣ هـ = ١٠٨٠ م ، وقبل رحيل ابن بسام عن شنترين إلى الاشبونة فى عام ٤٧٧ هـ = ١٠٨٤ م ، أى أنها كانت بين أعوام ١٠٨١ و ١٠٨٣ ، ولنا أن نزعم أن ابن بسام يومها كان قد حصلّ قدرًا من العلـ ، وبلغ مرحلة من العمر ، تتيح له أن يغشى هذه المجالس ، وأن يسامر هؤلاء الأدباء .

كذلك يغلب على الظن أنه رحل إلى أشبونة طلبا للعلم ، وبحثا عن مجـ أوسع للثقافة ، ويبعد أن نتصَوّر غير هذا القصد هدفًا ، فقد كان على شىء من يسر يستطيع معه أن يعيش فى بلده دون حاجة إلى هجرة ، ولانعرف كم من الوقت بقى فيها ، ولعله كان يتردد بينها وبين شنترين مسقط رأسه . لكنه فارق المنطقة كلها أكيدًا قبل عام ١٠٩٣ م ، ففى هذا العام سقطت الإشبونة ، ومعها شـترين ، لأول مرة فى يد ألفونسو السادس ملك ليون ، فغادر وطنه فى ظروف قاهرة ، وحال من الفوضى شاملة ، وحاول مع أسرته أن ينجوا بأنفسهم ، وظل يتنقل فى البلاد التى بقيت فى قبضة المسلمين بغربى الأندلس طوال أعوام ثمانية ، حتى استقر به المقام فى قرطبة لأول مرة عام ٤٩٤ هـ = ١١٠٠ م ، هاربًا بنفسه ، تاركًا كل ما يملك وراءه ، لكن قرطبة استسلمت للمرابطين قبل مجيئه إليها بعشر سنوات ، إذ سقطت فى ديسمبر ١٠٩٠ م ، وبقيام الحكم المرابطى أصبحت إشبيلية عاصمة الأندلس كله ، وإليها انتقل مركز الأحداث ، وأصبحت موطن الثقل السياسى والثقافى على السواء ، وتحولت قرطبة إلى مدينة تعسة الحظ ، أمسها ذكريات ، وحاضرها كسيف ، ومستقبلها مظلم ، فتحول عنها إلى إشبيلية ، ففى العاصمة سوف يتاح له من فرص الظهور والثراء والمجد مالايتاح له فى المدن المنزوية البعيدة عن الأضواء والأسماع .

وقد أوجز فى مقدمة « الذخيرة » حالته النفسية ، والظروف التى عاجر فى ظلها ، وكيف ترك شنترين قاصية الغرب ، « مفلول الغرب ، مروَّع السرب ، بعد أن استنفد الطريف والتلاد ، وأتى على الظاهر والباطن النفاد ، بتواتر طوائف الروم علينا فى عقر ذلك الإقليم ، وكنا قد غنينا هناك بكرم الانتساب ، عن سوء الاكتساب ، واجتزأنا بمذخور العتاد ، عن التقلب فى البلاد ، إلى أن غلب علينا الروم ذلك النظام ، وحين اشتد الهول هناك ، اقتحمت بمن معى المسالك ، على

مهامه كذب فيها العين الأذن ، وتستشعر فيها المحن ، حتى خلصت فوصلت حمص [= إشبيلية] بنفس قد تقطعت شعاعًا ، وذهب أكثرها التياعًا ، وليتنى عشت منها بالذى فضلا . فتغربت بها سنوات ولا آنس إلا الانفراد . ولا أتبلغ إلا بفضلة الزاد ، والأدب بها أقل من الوفاء ، حامله أضيع من قمر الشتاء ، وقيمة كل أحد ماله ، وأسوة كل بلد جهّاله »[1] .

ولا نعرف تاريخ رحلته إلى إشبيلية أكيدًا ، لكننا نعرف أنه فى عام ٥٠٢ هـ = ١١٠٩ م كان قد استقر بها يتعيّش من قلمه ، يدبج التراجم ، ويكيل المديح لمن يجزيه عنه بالمال ، ويصنّف كتابه الذى حاز به الشهرة ، والوحيد الذى بين أيدينا من مؤلفاته : « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » ، ويرى دوزى أنّ ما كان ابن بسام يصيبه من المال ، من الأغنياء وعلية القوم ، إنما يشبه الأتعاب التى يتقاضاها المؤلفون اليوم من الناشرين[2] .

وفى إشبيلية سكن روعه ، وتحسنت مع الزمن حاله ، واحتل من مجتمعها مقامًا عاليًا ، وهبط من مجالسها مكانًا رفيعًا ، وأصبح له من الوزراء أصدقاء يتحدثون إليه ، ويقصّونه أخبارهم وما يتصل بهم .

كذلك أغفل التاريخ الحديث عن الشيوخ الذين درس عليهم إغفالا تامًّا ، ومن ثم يصح لنا أن نزعم أنه كان طالبًا ولنفسه معلمًا ، وأن ماتلقاه من علم لايتجاوز فى البدء ما أجمل ابن خلدون وصفه فى دقة حين تحدث عن التربية عند الأندلسيين واختلافها عن مثيلتها فى المشرق ، وبقية الغرب الإسلامى : حفظ القرآن صبيًّا ، ثم درس إلى جانبه شيئًا من الحساب والتاريخ ، وحفظ قدرًا من الشعر والنثر ، ومضى وحده بإمكانياته المادية يلتهم كل ماتقع عليه يده من مخطوطات ، فمادة الرجل الثقافية – كما سنرى فيما بعد – عريضة وافرة .

ومن البين أن أحدًا من الذين درس عليهم وأخذ عنهم لم يكن بذى شأن يذكر ، فلا المعاجم الأندلسية ، ولا كتب الطبقات والتراجم ، تسجل فى هذه الفترة ترجمة لعالم يشار إليه فى هذا الركن القصىّ من الأندلس ، ولاهو فيما كتب وجد من يزهو

---

(١) الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ، ص ١٩ ، طبعة بيروت .

(٢) Gonzales Palencia, Angel : Historia de la Literatura Arabig, 200,2 sedicion, colccion Labor, barcelooa, 1945.

بأستاذيته ، لكن فيما تناثر من إشارات فى كتابه ، نعرف أنه كان قارئًا لأبى العلاء المعرى ، حافظًا لشعره ، يستشهد به كثيرً فى مقام المقارنة والتعليق ، ثم يأتى بعده المتنبى ، وبقية كبار الشعراء العباسيين كابن الرومى وأبى نواس وأبى تمام والبحترى وديك الجن والعباس بن الأحنف وأبى دهبل الجمحى ، فضلا عن الشعراء الأندلسيين من معاصريه كابن زيدون وابن عبدون وابن شُهَيد . وفى مقام النثر يُكثر استشهاده بالجاحظ ، ويحتذى أسلوبه أحيانًا .

كان الأندلس حين بدأ يؤلف فى إشبيلية كتابه يجمع بين الشعراء الذين غرموا بالطبيعة أزهارًا وأنهارًا ، كابن خفاجة وابن الزقاق[1] أو انحدروا إلى شعر لاحتشام فيه ولاعفة ، كنزهون بنت القلاعى ، والكتندى . بيدأنَّ الاهتمام الأكبر اتجه فى هذا العصر إلى التأليف فى طبقات الشعراء .

* * *

مر التأليف فى طبقات الشعراء والعناية بأخبارهم والترجمة لهم بمراحل تطورية قبل أن يصل إلى أوجه فى المشرق والمغرب على السواء .

وواضح أننا لانعنى هنا بالكتب التى كانت تهدف إلى جمع مختارات من الشعر الخاص دون أن تعنى بالتعريف بأصحابها . كالمفضليات والأصمعيات والمعلقات وغيرها ، أو تلك التى كانت تعنى أصلا بالنقد والتقويم والمقارنة ، وإنما هدفنا المؤلفات ذات الطابع التاريخى « وأقدم مالدينا منها وأصل نُسجَ على منواله . كتاب « البارع » فى أخبار الشعراء المولّدين ، لأبى عبد الله هارون بن على بن يحيى بن أبى منصور المنجم البغدادى (ت ٢٨٨هـ = ٩٠٠ م) جمع فيه ١٦١ شاعرًا ، وافتتحه بذكر بشار بن برد ، وختمه بمحمد بن عبد الملك بن صالح ، واختار فيه من شعر كل واحد عيونه . ثم جاء بعده أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبى (ت ٤٢٩ هـ = ١٠٣٨ م) فألف « يتيمة الدهر فى شعراء أهل العصر » ، وهو أفضل كتبه وأحسنها وأجمعها وهو ذيل لكتاب « البارع » المتقدم ذكره . ثم جاء أبو الحسن على بن الباخرزى

---

(١) انظر الفصل الخاص بابن الزقاق فى كتاب : مع شعراء الأندلس والمتنبى ، تأليف المستشرق الإسبانى إميليو غرسية غومث ، وقد قمنا بترجمته من الإسبانية ونشرته دار المعارف ، الطبعة الرابعة . القاهرة ١٩٨٥ م .

(ت ٤٦٧ هـ = ١٠٧٤ م) الشاعر المشهور ، وصنف كتابه : « دمية القصر وعصرة أهى العصر » وجعله ذيلا ليتيمة الدهر ، وجمع فيه خلقًا كثيرًا . وذيلا لكتابه هذا ألّف أبو المعالى سعد بن على الوراق الحظيرى (ت ٥٦٨ هـ = ١١٧٢ م) كتابا أسماه « زينة الدهر وعصرة أهل العصر » ترجم فيه جماعة كثيرة من أهل عصره ، وأورد لكل واحد طرفًا من أحواله وشيئا من شعره وحمل الراية بعده العماد الأصفهانى ، أبو عبد الله محمد بن صفى الدين (ت ٥٩٧ هـ = ١٢٠٠ م) وصنف كتابه « خريدة القصر وجريدة أهل العصر » وجعله ذيلا على زينة الدهر ، وهؤلاء هم الذين سبقوا ابن بسام أو عاصروه فى التأليف فى هذا اللون بالمشرق .

أما أقدم من طرق هذا الجانب من التأليف فى الأندلس فهو عثمان بن ربيعة الأندلسى . ولانعرف عنه أكثر من أنه إشبيلى ، وصنف كتابًا فى « **طبقات الشعراء بالأندلس** » ، لايزال مخطوطًا بعد فى فاس ، وأنه توفى قريبا من عام ٣١٠ هـ - ٩٢٢ م[1] ولمّا كان معاصرا لأبى عبد الله هارون بن على بن يحيى صاحب كتاب « البارع » ، وكان هذا أسن منه ، وكان الأندلس فى هذه الفترة من عمره يرنو بعينيه إلى المشرق فى كل مايصنع ، صح لنا أن نظن أنه صنف كتابه هنا اقتداء بصاحبنا هناك . وفى نفس الفترة ألّف **ابن أبى الفتح** (قاسم بن نصير بن رقاص بن عيشون) من شذونة (ت ٣٣٨ هـ = ٩٤٩م) كتابا عن « **الشعراء من الفقهاء بالأندلس**[2] » ، وألّف محمد بن هشام **بن سعيد الخير بن الأمير الحكم** (ت ٣٤٠ هـ = ٩٥١ م) وكان أديبا يقول الشعر « **كتابًا فى أخبار الشعراء بالأندلس** »[3] . أما عبد الله بن محمد **بن مغيث** (ت ٣٥٢ هـ = ٩٦٣ م) فقد ألف كتابا عن « **شعر الخلفاء من بنى أمية** »، حذا فيه حدو الصولى فى كتابه « الأوراق » فى شعر بنى العباس ، وقد قام بالعمل تلبية لرغبة **الحكم الثانى** حين رغب إليه أن يصحبه فى غزاة له ، فاعتذر بضعف جسمه ، فأعفاه من الغزاة على

(١) البغة ، ص ٣٩٩ ترجمة رقم ١١٨٤ - ابن الأبار ، جزء من تكملة الصلة ، ص ١٨٧ ترجمة ٢٢٥٤ ، نشره Gonzalez Palencia, Angely M.Alarcon, in Miscelanea de Estudios Textos Arab es, Madrid, 1915 .

(٢) ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، ت رقم ١٠٦٧ .

(٣) البغة ص ١٢٩ ترجمة ٢٩٨ .

شريطة أن يؤلف الكتاب الذى أشرنا إليه آنفًا ، فصنع ذلك فى نفس لعام الذى توفى فيه[١] .

بلغ هذا النوع من التآليف ذروته فى كتاب « **الحدائق** » **لابن فرج الجيانى** (ت ٣٥٩ هـ = ٩٧٠ م) وكان واقر الأدب كثير الشعر ، ألف كتابه للحكم الثانى ، وعارض فيه كتاب الزهرة لأبى بكر محمد بن داود بن على الأصبهانى ، إلا أبا بكر ذكر مائة باب فى كل باب مائة بيت ، وابن فرج أورد مائتى باب فى كل باب مائتى بيت من الشعر ، ليس منها باب تكرر اسمه لأبى بكر بن داود ، ولم يورد فيه لغير أندلسى شيئا ، وكان يضم تراجم لمعاصريه من الشعراء حتى منتصف القرن الرابع الهجرى ، منتصف القرن العاشر الميلادى ، ولقد مات هذا الأديب رهين سجن الحكم الثانى لأمر نقمه عليه ، كما أن كتاب الحدائق ضاع ولم يصلنا منه شىء[٢] .

وألف أبو بكر **عبادة بن ماء السماء** (ت ٤١٩ هـ = ١٠٣١ م) كتابًا فى « **أخبار شعراء الأندلس** » وكان شاعرًا إلى جانب أنه أرسى قواعد صنع الموشحات ، وأورد له ابن بسام طائفة من أشعاره ، وأضرب صفحًا عن موشحاته ، ولكن العجيب أنه لم يتر إلى كتابه هذا ، لا فى مقام التعريف بصاحبه ، ولا نقل عنه فى ثنايا الذخيرة شيئا[٣] .

ويذكر ابن بسام أن أبا الوليد إسماعيل بن محمد بن عامر الملقب بحبيب ، أحد وزراء المعتمد وصاحب كتاب « البديع فى فصل الربيع »[٤] وقد قتله المعتضد بن المعتمد قريبًا من عام ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م ، وله من العمر تسع وعشرون سنة ، ألف كتابًا جمع فيه أشعار الأندلس خاصة[٥] ، وكذلك أسهم فى هذا الباب الفتح بن خاقان ، معاصر بن بسام ، وتوفى عام ٥٢٩ هـ = ١١٣٤ ، بكتابيه « قلائد العقيان ومحاسن الأعيان » و« مطمح الأنفس ومسرح لتأنس » ، وسنعود له فى حديث طويل .

(١) المرجع السابق ترجمة ٨٨٣ .

(٢) البغية ، ترجمة رقم ٢٣١ – رايات المبرزين ص ٧٢ – المغرب فى حلى المغرب ، جـ ٢ ص ٥٦ .

(٣) الذخيرة ، ق ١ م ٢ ص ١ – ١٢ – رايات المبرزين ص ٤٨ – الصلة ص ٤٤٣ .

(٤) نشره المستشرق الفرنسى هنرى بيريس Henri peres تحت عنوان « البديع فى وصف الربيع » فى باريس عام ١٩٤٠ .

(٥) المغرب فى حلى المغرب جـ ١ ص ٢٥٠ رايات المبرزين ص ١١ – البغية ترجمة رقم ٥٣٤ .

ذلك موجز لتطور التأريخ الأدبى فى الأندلس حتى عصر ابن بسام ، ومما يسترعى الاهتمام أن أغلب الأعلام الذين ألفوا فى هذا الباب من المشارقة والأندلسيين ، كالحظيرى البغدادى ، والعماد الأصفهانى ، والفتح بن خاقان ، وابن بسام ، ينتمون إلى القرن السادس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى ، مما يصور لنا القدر الذى كانت عليه النهضة الثقافية فى هاتيك الأيام .

لكن ثمة فارقًا فى النهج **بين كتب المشارقة والمغاربة** فى هذا الميدان ، فقد كان الأولون أقرب إلى الإحاطة والاستيعاب فى مناهجهم ، فكتبوا عن شعراء عصورهم عن شتى الأصقاع ، ولم يقصروا مؤلفاتهم على إقليم بعينه ، فأفرد الثعالبى فى كتابه بابًا ذكر فيه جمهرة من مشاهير شعراء المغرب والأندلس وكتابها ، وحذا العماد الأصفهانى حذو الثعالبى أو زاد عليه ، فأفرد قسمًا ضخمًا لشعراء الأندلس وصقلية والقيروان والمغرب بأقسامه الثلاثة[1] ، أما المغاربة وبخاصة الأندلسيين فقد قصروا مؤلفاتهم على الأندلس فى الشعر والأدب ، لأسباب سنعرض لها فى حينها .

* * *

على الرغم من تقدير **ابن بسام** للثعالبى ، وإعجابة بمنهجه فى يتيمة الدهر واحتذائه به ، وقوله عنه فى الذخيرة : إنه « كان رأس المؤلفين فى زمانه ، وإمام المصنفين بحكم أقرانه » ، لم يكن دافعه إلى تأليف الذخيرة متابعة الثعالبى ، أو مزاحمة معاصره الفتح بن خاقان ، إنما كانت **حوافزه تكمن وراء أسباب تتصل بوطنه والدفاع عنه** ، وتقرير أمجاده وإشاعتها ، وهى حوافز تستبد بالنفس ساعة العثرة ، وتلح عليها إذا ما أحاطت بأمة الأديب العوادى وأناخت عليها المحن ، وأوشك الفناء أن يبتلعها ، ساعتها يتحول قلم الكاتب إلى سلاح يدافع ويهاجم ويقاتل ، كان ابن بسام كذلك ..

إنه **ينعى على مواطنيه « متابعة أهل المشرق** ، يرجعون إلى أخبارهم

---

(١) كتاب العماد الأصفهانى « خريدة القصر وجريدة أهل العصر » يقع فى عدة أقسام : قسم شعراء العراق صدر منه فى بغداد أجزاء ، والباقى قيد النشر ، وقسم شعراء الشام . ونشر بدمشق فى ثلاثة أجزاء وملحق ، بتحقيق الدكتور شكرى فيصل ، والقسم الثالث يحتوى على شعراء مصر وصقلية والقيروان والمغرب والأندلس ، نشر منه منذ سنوات ما يخص مصر فقط فى جزأين ، ونشر أخيرًا الجزء الخاص بالمغرب فى القاهرة ، والجزء الخاص بالمغرب كاملا فى تونس .

المعتادة ، رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أوطن بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذا صنما ، وتلوا ذلك كتابًا محكمًا ، وأشعارهم السائرة ، مرمى القصيّة ، ومناخ الرزيّة ، لا يعمر بها جناء ولا خلد ، ولا يصرف فيها لسان ولا يد ، فغاظنى منهم ذلك ، وأنفت مما هنالك ، وأخذت نفسى بجمع ما وجدت من حسنات دهرى ، وتتبع محاسن أهل بلدى وعصرى ، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهِلّة ، وتصبح بحاره ثمارًا متسحلة ، مع كثرة أدبائه ، ووفور علمائه ، وليت شعرى من قصر العلم على بعض الزمان ، وخص أهل المشرق بالإحسان ؟! .

ويشيد بابن فرج الجيانى لأنه رأى رأيه فى النصفة ، وذهب مذهبه من الأنفة ، فأملى فى محاسن أهل زمانه كتاب الحدائق ، ويلوم أهل الأندلس تعودهم عن البحث عن مناقب عظمائهم ، وزهدهم فى الإشادة بمراتب زعمائهم . ثم يقرر فى زهو مبالغ « إن أهل هذه الجزيرة - مذ كانوا - رؤساء خطابة ، ورؤوس شعر وكتابة ، تدفقوا فأنسوا البحور ، وأشرقوا فباروا الشمس والبدور ، وذهب كلامهم بين رقة الهواء ، وجزالة الصخرة الصماء ، على كونهم بهذا الإقليم - ومصاقبتهم لطوائف الروم ، وعلى أن بلادهم آخر الفتوح الإسلامية ، وأقصى خطى المآثر العربية ، ليس وراءهم وأمامهم إلا البحر المحيط ، والروم والقوط . فحصاة من هذا حاله ثبير ، وثمده بحر مسجور » . ويستشهد على ما يقول برؤية لأبى على القالى ، وقد وفد على الأندلس عام ٣٣٠ هـ = ٩٤١ م فى زمان عبد الرحمن الناصر ، وحكى : « لما وصلت القيروان وأنا أعتبر من أمرّ به من أهل الأمصار ، فأجدهم درجات فى الغباوة وقلة الفهم ، بحسب تفاوتهم فى مواضعهم منها بالقرب والبعد ، حتى كأن منازلهم من الطريق هى منازلهم من العلم محاصّ ومقايسة . فقلت : إن نقص أهل الأندلس عن مقادير من رأيت فى أفهامهم ، بقدر نقصان هؤلاء عمن قبلهم ، فسأحتاج إلى ترجمان بهذا الأوطان » ! ويعقب ابن بسام على ما أورد : « بلغنى أنه كان يصل كلامه هذا بالتعجب من أهل هذا الأفق فى ذكائهم ، ويتغطى عنهم عند المباحثة والمفاتشة ، ويقول لهم : إن علمى علم رواية ، وليس بعلم دراية ، فخذوا عنى ما نقلت لكم ، فلم آل لكم أنْ صحّحت » .

وقد اهتم بتأريخ المشارقة لأهل وطنه ، لا يكاد يقع على خبر من ذلك حتى

يمسك به ، ويشير إليه ، ويراه مهما من الأمر ، ففى ترجمته لابن دراج القسطلى : « وقد أجرى الثعالبى طرفًا من أمره ، وأغرب بلُمع من شعره ، ففى كتابه المترجم باليتيمة : بلغنى أن أبا عمر القسطلى كان عندهم بصقع الأندلس ، كالمتنبى بصقع الشام ، وهو أحد شعورهم الفحول هنالك ، وكان يجيد ما ينظم » لكن شهادة المشارقة لا تبل له صدى ولا ترضى طموحًا ، فما تسنح له بارحة بالزهو عليهم إلا اهتبلها ، فرفع من شأن مواطنيه ، وغض من أقدار غيرهم ، فإذا أورد قصيدة ابن دراج فى مدح على بن حمود[1] .

لعلّك يا شمسُ عند الأصيلِ ... شَجِيت لشجُو الغريبِ الذليلِ
فكُونى شفيعى إلى ابن الشفيع ... وكونى رسولى إلى ابن الرسول
فـمَّا شهـدت فأزكى شهيـدٍ ... وإمَّـا دللتِ فـأهـدى دليـل
على سابقٍ فى قيودِ الخطوبِ ... ونَجْمٍ سنًا فى غُثَاء السيول

عقبّ عليها ، « وهذه القصيدة له طويلة ، وهى من الهاشميات الغر ، بناها من المسك والدر ، لا من الجص والآجر ، لا بل خلّدها حديثًا على الدهر ، وسرّ بها مطالع النجوم الزهر ، لو قرعت سمع دعبل الخزاعى ، والكميت الأسدى ، لأمسكا عن القول ، وبرئا إليها من القوة والحول ، بل لو رآها السيد الحميرى ، وكثير الخزاعى ، لأقاماها بينة على الدعوى ، ولتلقياها بشارة على زعمها بخروج الخيل من رضوى ، وقد أثبت أكثرها إعلانًا بجلالة قدرها ، واستحسانًا لعجزها وصدرها » .

وأظن ابن بسام يقف وحيدًا فى رأيه هذا ، فالقصيدة ككثير من قصائد ابن دراج ، متينة النظم ، قوية البناء ، جزلة العبارة ، لكنها خامدة الروح ، تبدو كأن صاحبها مجهد متعب ، يقولها أداء لرسالة ، أو قيامًا بواجب ، لا تعبيرًا عن مشاعر تلح عليه ، وتأخذ بخناقة كى يحملها ما يقول من أبيات !

كان ذلك طابعه ، لا يترك فرصة تمضى دون أن يسجل فيها تفوق الأندلسيين

(١) على بن حمود ، وينتهى نسبه - فيما يزعم - إلى الحسن بن على بن أبى طالب كان جنديًا فى جيش سليمان بن الحكم بن سليمان ، الملقب المستعين بالله ، جعله هذا وأخاه القاسم قائدين على المغاربة ، وولى عليا سبتة وطنجة ، وولى القاسم الجزيرة الخضراء . ثم طمع على فى الإمارة ، فاستولى على قرطبة ومالقة وتسمى بالخلافة ، وتلقب بالناصر ثم قتل غيلة عام ٤٠٨ هـ = ١٠١٨ م ، انظر : المعجب ص ٤٣ و ٤٩ وما بعدها .

على المشرقيين ، ولا يتهيب القول بأن إشبيلية تفوق العراق عظمة ، وأنها تزرى بالبلغاء من كتاب الديلميين[١] .

* * *

قسم ابن بسّام ذخيرته ، محتذيا إثر الثعالبى في يتيمته ، إلى أقسام أربعة :

● **القسم الأول** واختص به « أهل حضرة قرطبة وما يصاقبها من بلاد موسطة الأندلس » ، وترجم فيه لأربعة وثلاثين شاعرًا وأديبًا وسياسيًّا ومؤرخًا ، أظهرهم ابن دراج القسطلى ، وابن حزم ، وابن شهيد ، وابن زيدون ، وولادة بنت المستكفى ، وعبادة بن ماء السماء ، وابن حيان وابن الفرضى ، وأبو طالب عبد الجبار المعروف بالمتنبى عند مواطنيه من أهل جزيرة شقر ، وتوجد مخطوطات هذا القسم فى الرباط ، ودار الكتب المصرية ، والمكتبة التيمورية الملحقة بدار الكتب المصرية ، ويوجد النصف الأول لهذا القسم مخطوطًا فى المكتبة الأهلية بباريس ، وكان المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال يملك نسخة أخرى مخطوطة لهذا القسم ، وقد نشر هذا القسم كاملا فى مجلدين فى القاهرة ، وصدر المجلد الأول منه عام ١٩٣٩ ، والمجلد الثانى عام ١٩٤٢ .

● **القسم الثانى** وجعله لأهل الجانب الغربى من الأندلس « وذكر أهل حضرة أشبيلية وما اتصل بها من بلاد ساحل البحر المحيط الرومى » ، وعرّفت فيه بستة وأربعين من الرؤساء وأعيان الكتاب ، أوضحهم : القاضى أبو القاسم ابن عبّاد وابنه المعتضد ، والمعتمد وكيفية خلعه ، والقاضى أبو الوليد الباجى وابن القصيرة ، وابن عمّار ومقتله ، وابن وهبون ، وابن عبدون ، والأعمى التطيلى ،وابن القبطورنة ، وابن قزمان وغيرهم ، وتوجد مخطوطات هذا القسم فى دار الكتب المصرية ، وفى مكتبة بغداد ، وفى مكتبة أكسفورد ، ومكتبة المجمع التاريخى فى مدريد ، وخزانة القصر الملكى فى الرباط .

● **القسم الثالث** ، وذكر فيه أهل الجانب الشرقى من الأندلس ، ومن نجم من كواكب العصر فى أفق ذلك الثغر الأعلى ، إلى منتهى كلمة الإسلام هناك ، وعرّف بعدد من الرؤساء وأعيان الكتاب وطوائف الشعراء ، بينهم ، ابن حسداى ، وابن خفاجة ، وابن اللبّانة ، وابن أبى الخصال ، وغيرهم ، وتوجد

(١) Pɛrɛs Henri : La Poɛsie Andaleuse en Arabe Classibue au XIe siɛcle, b. Paris 1953.

مخطوطات هذا القسم فى مكتبة بغداد ، وفى مكتبة جوتا Gotha بألمانيا ، والمجمع التاريخى فى مدريد ، وخزانة القصر الملكى فى الرباط ولم ينشر من هذا القسم شىء فى القاهرة .

● **لقسم الرابع** ، وأفرده لمن طرأ على هذه الجزيرة من أديب شاعر ، وأوى إلى ظلها من كاتب ماهر ، واتسع فيها مجاله ، وحفظت فى ملوكها أقواله ، وألحق بهم طائفة « من مشهورى أهل تلك الآفاق ، ممن نجم فى عصره بأفريقية والشام والعراق » وقد أثبت فى آخر هذا القسم طرفًا من كلام أهل المشرق ، وإن كانوا لم يطرأوا على هذا الأفق ، حذْو أبى منصور الثعالبى ، فإنه ذكر فى يتيمته نفرًا من أهل الأندلس ، فعارضه أو ناقضه . وتضم تراجم هذا القسم اثنين وثلاثين شخصًا ، أولهم أبو العلاء صاعد البغدادى وابن حمديس الصقلى ، وابن القابل البستى ، ومن المشارقة : الشريف الرضى ، ومهيار الديلمى ، والثعالبى ، وأبو إسحاق الحصرى ، وابن رشيق القيروانى ، وغيرهم ، وتوجد مخطوطات هذا القسم فى الرباط ، وأخرى كان يمتلكها ليفى بروفنسال ، ونُشِرَ المجلد الأول منه فى القاهرة عام ١٩٤٥ .

وتوجد فى خزانة القصر الملكى فى الرباط نسخة فريدة كاملة من الكتاب بأقسامه الأربعة ، حسنة الخط ، جيدة التجليد ، كاملة ، عُثِرْ عليها أخيرا ، ولم تكن معروفة حتى خمسة عشر عامًا خلت .

إذا تتبعنا النهج الذى التزمه ابن بسام فى كتابه ، وجدناه **يعتذر فى مطلعه عما عسى أن يكون قد أغفله أو سها عن ذكره** بالظروف الخاصة التى ألف فيها كتابه ، وبأن الأوراق التى اعتمد عليها كانت حافلة بالأخطاء . « لعل بعضَ مَنْ يتصفحه سيقول : إنى أغفلت كثيرًا ، وذكرت خاملا ، وتركت مشهورًا ، وعلى رسله ؛ فإنما جمعته بين صعب قد ذل ، وغرب قد فل ، ونشاط قد قل ، وشباب ودع فاستقل ، من تفاريق كالقرون الخالية ، وتعاليق كالأطلال البالية ، بخط جهال كخطوط الراح ، أو مدارج النمل بين مهاب الرياح ، ضبطهم تصحيف ، ووضعهم تبديل وتحريف ، أيأسُ الناس منها طالبها ، وأشدهم استرابة بها كاتبها . ففتحت أنا أقفالها ، وفضضت قيودها وأغلالها ، فأضحت غايات تبيان وبيان ، ووضحت آيات حسن وإحسان » .

ولم تكن بين يديه أخبار موضوعة ، ولا أشعار مجموعة لكل من ترجم لهم ، تفسح له فى طريق الاختيار ، فانتقد ما وجد ، وبحث طويلا ، وضمن كتابه من أخبار مواطنيه ما أملّ أن يربى به على أهل المشرق .

ولم يرتب تراجمه على حسب السنين إلا فى الجزء الخاص ببطليوس وما يصاقبها ، وإنما رتبها على حسب مكانة المترجم له كما رآها ، وهو يبدأ عادة بترجمة العلم المراد ، شاعرًا أو كاتبًا أو سياسيًّا ، مرسلة فى نثر بديع مسجوع ، ثم يذكر مؤلفاته ، ويطرى مواهبه الأدبية ، ويورد مقتطفات من شعره ونثره ، وفى الترتيب بين أصحاب الفنون يبدأ بذكر الكتاب « لأنهم صدور فى الآداب إلا أن يكون له حظ من الرياسة ، أو يدعو إلى تقديمه بعض السياسة » ، وأول من ذكر من أهل قرطبة أمراؤها فى الفترة التى أرخّ لها ، وتلاهم بالكتاب ، فالوزراء ، فأعيان الشعر ، ثم بطوائف من المقلين منهم ، « وقد يذكر الشاعر الخامل ، وينشد الشعر النازل ، لأرب يتعلق به ، أو الخبر يذكر بسببه ، وقد يذكر الرجل لنباهة ذكره لا لجودة شعره ، ويقدم الآخر لاشتهار إحسانه ، مع تأخر زمانه » .

وأورد فهرسًا مفصلا فى أول الكتاب عن أقسامه الأربعة ، ومحتوى كل قسم منها ، وما درس فيه من أمراء أو كتاب أو شعراء ، وأخاله وحيد عصره فى هذا المجال .

وقصر مؤلفه على أهل زمانه ، من منتصف القرن الحادى عشر الميلادى إلى منتصف القرن الثانى عشر ، فلم يعرض لشىء من أشعار الدولة الأموية إمارة كانت أم خلافة ، ولا لعصر الحجابة على أيام المنصور العظيم وابنيه ، لأن أولئكم فيما يرى ترجم لهم ابن فرج الجيانى فى كتابه « الحدائق » ، فلم يعرض لأحد ممن ذكره ، ولم يتعد أهل عصره ممن شاهده بنفسه ، أو لحقه بعض أهل دهره ، لأن كل مردّد ثقيل ، وكل متكرر مملول .

وهو **يخرج على قاعدة الفضل للمتقدم** ، وكانت سائدة فى عصره وما قبل عصره ، فيرى « أن الإحسان غير محصور ، وليس الفضل على زمن بمقصور ، ويكره للفضل أن يُنكر تقدم به الزمن أو تأخر ، ولو اقتصر المتأخرون على كتب المتقدمين لضاع علم كثير وذهب أدب غزير » ، وهى قاعدة فى النقد الأدبى ليست له ، وإخاله نقلها عن القاضى علىّ بن عبد العزيز الجرجانى

(ت ٣٦٦ هـ = ٩٧٦ م) صاحب كتاب « الوساطة بين المتنبى وخصومه » ، فقد كان ابن بسام معجبًا بالمتنبى ، حفيًّا بشعره ، يكثر الاستشهاد به ، وكان الجرجانى أول من أنصف المحدثين دون أن يتحيف الأقدمين حقهم ، عالمًا بصيرًا فى دراسته للموضوع وتحليل أسبابه ، فهو يرد الإعجاب بالقدامى إلى « الكلف بنصرة ما سبق إليه الاعتقاد ، وألفته النفس »[1] على حين قنع ابن بسام من القضية بإنكارها فى جمل إنشائية بلاغية .

وبين **مذهبه فى طريقة إيراد النصوص وعرضها** ، وأنه أراد بديوانه « أن يكون بستان منظوم ومنثور ، لا ميدان بيان وتفسير ، يورد الأخبار والأشعار لا يفك معمَّاها فى شىء من لفظها أو معناها » . ولكنه إذا ظفر بمعنى حسن ، أو وقف على لفظ مستحسن ، ذكر من سبق إليه ، وأشار إلى من نقص عنه أو زاد عليه . فإذا أورد الأبيات الآتية لابن زيدون فى نزهة كانت له بمدينة الزهراء :

إنّى ذكرتُك بالزهراء مشتاقًا ... والأفق طَلْقٌ ومرأى الأرض قد راقَا
وللنسيم اعتلالٌ فى أصائله ... كأنّه رقّ لى فاعتلّ إشفاقًا
والروضُ من مائة الفضى مبتسمٌ ... كما حَلَلْت عن اللبّات أطواقا
لاسكنّ الله قلبًا عقّ ذكركُم ... فلم يَطِرْ بجناح الشوْق خفّاقَا
لو شاء حملى نسيم الريح حين سرى ... وافاكُم بفتى أضناهُ ما لاقى

قوله : « وللنسيم اعتلال فى أصائله » ، البيت ، أراه ألمّ فيه بقول ابن المعتز :

والريحُ تجذبُ أطراف الثياب كما ... أفضى الشفيقُ إلى تنبيه وسنان

وقلبَهُ ارضىّ فقال :

وأمست الريحُ كالغيرىَ تجاذِبُنا ... على الكثيب فضولَ الرَيطِ واللمم

وأحسب الفرزدق أبا عذرته ، وواسم غرته بقوله :

وركْب كأنَّ الريح تطلبُ عندهم ... لها تِرةٌ من جذبها بالعصائب

ومدّ أصحاب المعنى بالبيت حيث يقول :

---

(١) على بن عبد العزيز الجرجانى : الوساطة بين المتنبى وخصومه ، ص ٩ ، الطبعة الأولى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين ، القاهرة ١٣٦٤ هـ = ١٩٤٥ م وانظر مناقشة القضية علميا للدكتور ابراهيم سلامة فى كتابه ، بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ، ص ٢١٢ و ٢١٣ ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٦٩ هـ = ١٩٥٠ م .

سروا يخبطون الريح وهى تلفهم إلى شعب الأكوار ذات الحقائب

وقوله : « لو شاء حملى نسيم الريح » ، كقول المجنون وهو أحسن ما قيل فى النحافة ، على زعم المبرد :

ألا إنما غادرت يا أمّ مالك صدى أينما تذهب به الريح يذهب

وقال المتنبى :

كفى بجسمى نحولا أننى رجل لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

وقال الخبز أرزى :

أنحلنى الحب فلو زج بى فى مقلة النائم لم ينتبه

وإذا مرّ معنى غريب ، وتعلق به خبر مشهور ، وأمكنه فيه شعر كثير ، مد أطنابه ووصل أسبابه .

وهو يمهد لما ذكر من شعر ورسائل بما تعلق بها من أنباء الفترة ، ونُبَذ من مشور الوقائع ، « ليجمع بين الشعر والخبر جمع الروضة بين الماء والزهر » ، لأنه رأى « أكثر ما ذكر الثعالبى من ذلك فى يتيمته محذوفًا من أخبار قائليه ، موتورًا من الأسباب التى وُصِلَتْ به وقيلت فيه ، فأملّ قارئ كتابه منحاه ، أحوجه إلى طلب ما أغفل فى سواه » . وهو بذلك يحقق أدق قواعد النقد الأدبى الحديث التى تقرر : إن تفسير الأدب وتقويمه يكون أكثر وضوحًا ودقة ، إذا عرفت الظروف التى قيل فيها ، والحوافز التى دفعت إليه ، والملابسات التى صحبته ، وفى نفس الوقت تسهم هذه المقدمات فى توضيح الإشارات التى تحتويها القصائد وتحديد مدلولها .

فإذا توسَّم أن فى القصيدة بيتًا غامضًا فسره ، أو تركيبًا معقدًا فصَّله ، وذلّل صعابه ، ففى قصيدة لابن دراج فى مدح المنصور بن أبى عامر :

وما رأى قَبْلَها قِرْنًا أعانِقُهُ إلا وودَّع نفسًا لا تراجعُهُ

حتى بدا الصبحُ مُمْشَطًّا ذوائبهُ يطاردُ الليلَ مَوْشِيًّا أكارعُهُ

كأنّ جَمْعَ ضلالٍ حانَ مصرعُه وأنتَ بالسيف يامنصورَ صَارِعُهُ

علّق عليه بقوله : قال أبو الحسن : قوله « موشيًا أكارعه » جعل ذوائب الصبح مشمطة من ممازجة الليل له ، وجعل أكارع الليل موشية من ممازجة الصبح لها ، وجعل آخر الليل من مواخره وهى المتصلة بأول الصبح ، وآخر الصبح من

مقادمه وهى المتصلة بآخر الليل ، وأصاب فى الإشارة إلى التشبيه لأنه أومأ إلى أن الصبح كالثير الوحشى وهو أبيض ، والثيران الوحشية كلها بيض ، وأكارعها موشية خاصة ، وإنما ألم القسطلى فى هذا بقول أعرابى يصف ليلة : « خرجنا فى ليلة حندس قد ألقت على الأرض أكارعها فمحت صور الأبدان ، فما كدنا نتعارف إلا بالآذان » .

وهو يورد من النصوص ما يرتضيه ،أو يخدم فكرة معينة يهدف لها ، أو تصوّر شخصية من يترجم له ، دون أن يجرى فى إيرادها على خطة ثابتة ، تارة يقنع من النص ببعضه ويشير إلى ذلك : « امتد بأبى عامر الكلام فى هذا الباب ، ومد فيه أطناب الإصناب والإسهاب ، فلذلك وقفت دون الغاية ، وقطعت قبل النهاية » . وأحيانًا ، جريًا على نفس المبدأ ، يكمل ما اختصر غيره وينبئ به ، ولا تسير تراجمه على نمط واحد ، أحيانًا تطول فتمتد إلى قريب من خمس وعشرين ومائة صفحة ، كما فى ترجمة ابن شهيد ، وقد تتوسط كما فى ترجمة ابن دراج القسطلى ، وقد يكتفى بثلاث صفحات كما أخبر ولادة بنت المستكفى .

* * *

كان حيّان بن خلف **بن حيّان** (ت ٤٦٩٠ هـ = ١٠٧٦ م) **المصدر الأول** الذى عوّل عليه ابن بسام فنقل منه كثيرًا ، وأشار إليه صراحة فى أكثر ما نقل ، وأغفل ذكره أحيانًا ، وإن لم يشر إلى المؤلف الذى أخذ عنه ، مكتفيًا بقوله : قال أبو مروان ، أو قال ابن حيان ، أو حكى أو نقلت من خطه ، ولو أنه ذكر فى مطلع الكتعب أنه عوّل على تاريخه الكبير .

لقد ودع ابن حيان الحياة وابن بسام على ظهرها وليدًا ، ومن المؤكد أنهما تعاصرا ، شيخ فان فى قرطبة ملء السمع والبصر ، ووليد قادم فى شنترين لا يعرف لنفسه ، ولا يعرف له أهله ، ما سيكون عليه فى الغد البعيد ، ووفد ابن بسام على قرطبة ولم يمض على وفاة شيخ مؤرخيها غير ثلاثين عامًا ، فوجد كتبه ذائعة ، وعلمه مذكورًا ، وشهرته تسد الأفق ، فنهل من فيضه ، واعترف له بالفضل واسبق ، « إذا وجدت من كلامه فصلا قد أحكمه ، أو خبرًا قد سرده ونظمه ، عوّلت على ما وصف ، ووليته خطة ما سطر وصنف ، إقرارًا بالفرق ،

وإعفاء لنفسى من معارضة من أحرز بأفقنا فى وقته قصبات السبق ، وبرز فى زمانه على جميع الخلق » .

أى « تاريخ كبير » هذا الذى عوّل عليه ابن بسام ؟

نحن نعرف لابن حيان كتبًا كثيرة ، منها : « أخبار الدولة العامرية » ، أو المآثر العامرية فى رواية أخرى ، ويعرض فيه لتاريخ الأندلس خلال حجابة المنصور بن أبى عامر ، وابنيه من بعده ، المظفر عبد الملك وعبد الرحمن شنجول ، أى الفترة الواقعة بين عامى ٣٦٦ هـ = ٩١٦ م و ٣٩٩ هـ = ١٠٠٨ م . وكتاب « البطشة الكبرى » ، ويعرض فيه لاستيلاء المعتمد بن عباد على مدينة قرطبة ، وخلع بنى جهور عن رياستها ، ونفى من بقى منهم إلى شلطيش ، لتسع بقين من شعبان سنة ٤٦٢ هـ ، أول يونية ١٠٧٠ م . « وتاريخ فقهاء قرطبة » ، وقد ضاعت كلها .

وألّف كتابه « المتين » فى ستين مجلدة ، وضاع هذا الكتاب كله أيضًا ، إلا بقايا متناثرة فى كتب مَن جاءوا بعده ونقلوا عنه ، أشاروا إليه أو لم يشيروا ، كابن بسام فى « الذخيرة » ، وابن عذارى فى « البيان المغرب » ، وابن الأبار فى « الحلة السيراء » ، وابن سعيد فى « المغرب فى حلى المغرب » ، والقاضى عياض فى « ترتيب المدارك » ، وتبدأ وقائعه فيما يرجح بأحداث الفتنة البربرية ، فى عام ٣٩٩ هـ = ١٠٠٨ م ، وتنتهى قبل وفاة مؤلفه بسنوات عام ٤٦٩ هـ = ١٠٧١ م .

ثم « المقتبس » ، وكان يتألف من عشرة أسفار ، ووصلتا منه عدة مخطوطات ، لأقسام مختلفة منه .

القطعة الأولى حصل عليها المستشرق الفرنسى ليثى بروفنسال ، من خزانة جامع القرويين فى فاس ، وتضم إمارة الحكم الأول ، والشطر الأكبر من إمارة ابنه عبد الرحمن الأوسط ، وتقع فى ١٨٨ ورقة ، وقد حاول أن ينشرها فى مصر عام ١٩٣٨ ، ثم قامت الحرب ، وصمت عنها ، واختفت دون أن يعرف لها أحد مقرًا .

وقطعة ثانية ، وكانت تؤلف مع الأولى ، فيما يبدو مخطوطًا واحدًا ، لأنها تبدأ من حيث تنتهى تلك ، وترقيم الأوراق يتصل بترقيم السابقة ، وجاءت فى ٩٥ ورقة ،

وعثر عليها فى حافظة أوراق متناثرة فى خزانة جامعة القرويين فى فاس ، ونشرها الدكتور محمود على .

والقطعة الثالثة ، وتوجد فى المكتبة البودلية فى أكسفورد تحت رقم ٥٠٩ ، وتتناول عصر الأمير عبد الله بن محمد ، وتضم ١٠٧ ورقات ، وكان الأب ملتشور أنطونيا يعدها للنشر ، ولكنه قُتِلَ فى الحرب الأهلية الإسبانية عام ١٩٣٦ ، فنشرت فى باريس بعد وفاته ، عام ١٩٣٧ ، ومن ثمّ لم تكن جيدة الضبط ، اضطرب النص أحيانًا وغمض أحيانًا أخرى .

القطعة الرابعة ، وتوجد فى خزانة القصر الملكى فى الرباط ، وهى مما آل إليها من خزانة آل زيدان فى مكناس ، كان ملتشور أنطونيا أول من عرف بها وأشار إليها ، فقد اطلع على قائمة هذه الكتب ، وفيها مخطوط يحمل رقم ١٢٨٣ ، ذُكِرَ أمامه أنه القسم الخامس من كتاب المقتبس ، وأنه متعلق بسنوات خلافة عبد الرحمن الناصر ، وقد اطلعت على المخطوطة بنفسى ، ورجعت إليها أكثر من مرة ، أثناء ترددى على خزانة القصر الملكى ، وهى مجلدة وسليمة ، لولا أن الأرضة قد عبثت شيئًا بالورقات الأولى منها ، وأكثر ما لفت نظرى من أحداثها أنها تلقى ضوءًا كاشفًا على حركة ابن مسرة الفلسفية ، وفيما أعلم فإن الأستاذ محمد الفاسى يقوم على تحقيقها وضبط نصها لنشره[1] .

والقطعة الخامسة مخطوطة مجمع التاريخ الملكى فى مدريد ، وهى حديثة الكتابة ، استنسخها المستشرق الإسبانى فرانسيسكو قديرة ، عن أصل قديم كان يوجد فى مكتبة سيدى حمود فى قسطنطينة بالجزائر ، وقد ضاع أصل المخطوطة ، ومن ثم أصبحت النسخة الحديثة هى الأصل ، وهى تعالج أحداث خمس سنوات غير كاملة من خلافة الحكم المستنصر ، وكان المستشرق الإسبانى غرسية غومث قد توفَّر على دراستها سنوات فيما يقال ، ثم دفع الدكتور حسين مؤنس ، وكان مديرًا للمعهد المصرى فى مدريد ، لحاجة فى نفسه من غرسية غومث ، بالطالب العراقى (الدكتور فيما بعد) عبد الرحمن حجى ، فنسخ المخطوطة خفية ، ونشرها بغير إذن ، فى بيروت عام ١٩٦٥ ، مما جعل مجمع التاريخ يتخذ قرارًا بحجب كل

---

(١) هكذا قيل لى يومها ، لصرفى عن تصويره وتحقيقه وفيما بعد حصل عليه المستشرق الأسبانى بدرو شالميتا ونشره فى مدريد مع فيدريكو كورينتى دى قرطبة ، وصدر عن المعهد الأسبانى العربى ١٩٧٩ .

مخطوطاته عن الدارسين العرب ، قرار مجحف لا يزال قائمًا حتى الآن ! .

أى الكتابين ، المقتبس أو المتين ، يعنى ابن بسام ، حين يشير إلى أنه ينقل عن التاريخ الكبير لابن حيان دون تحديد ؟ .

الواقع أن كلا الكتابين كان كبيرًا ، غير أن مادة كل منهما . وإشارات المؤرخين يمكن أن تعيننا فيما نهدف إليه من تحديد . لقد ألف ابن حيان **كتاب « المقتبس »** أولا ، ووقفه على تاريخ الأندلس منذ الفتح حتى قريب من عصره ، وهى فترة لا يعرض لها ابن بسام ، على حين أن **المتين** يتناول الحياة المعاصرة لابن حيان ، وهى تعنى صاحب كتاب الذخيرة ، وتتفق مع منهجه فى كتابه ، وينص ابن سعيد على ذلك صراحة فيقول : « والمتين يذكر فيه أخبار عصره ، ويعنى فيها مما شاهده ، ومنه ينقل صاحب الذخيرة » . وإذن يمكن أن نرجح مطمئنين أن ابن بسام كان يستقى مادته التاريخية حين يشير إلى ابن حيان ، وحين لا يشير ، من كتابه المتين ، وهُو بهذا يمكن أن يقدم لنا بعض العون فى تصور المنهج الذى سار عليه مؤرخ الأندلس العظيم فى كتابه « المتين » .

لم يلتزم ابن بسام نص ابن حيان فيما روى ، فكان يقتضب حيث تبدو له الرواية طويلة ، ويتخفف حين يبدو له الخبر ثقيلا ، ويجمل ما فصّل ويوجز ما شرح ، ويكمل ما يروى عن ابن حيان إذا رأى فى الخبر نقصًا ، أو أدرك أن له بقية ، تتميمًا للفائدة ، وقد ينقل له ويخالفه فيما ارتأى فيحتاط لنفسه ، ويورد قوله فى جو من الشك بأن يزيد : « زعم » أو « زعموا » يبرأ بها من مسؤولية ما أورد ، كأنما يقول أنا راو ، والمسئولية على من قال .

وينقل قليلا من **كتاب « نقط العروس » لابن حزم** ، والسبب واضح ، فالكتاب يضم معلومات مقتضبة عن خلفاء المشرق والأندلس وحكامها ، مما يوحى بأنها مجرد نقاط جمعها ابن حزم لينشئ حولها كتابًا مطولا ، وما نقله ابن بسام منه كان خاصًا بخبر ولادة ، وهى أقصر ترجمة أوردها ، ثم ترجمة لوالدها[1] .

وينقل عن **ابن قتيبة** على قِلّة . دون أن يشير إلى أى من كتبه ، وكلها كان

---

(١) كتاب نقط العروس لابن حزم نشره زايبولد فى غرناطة ١٩١١ ، وأعاد نشره سيكودى لوثينا ، أستاذ اللغة العربية فى جامعة غرناطة مرة أخرى عام ١٩٤٦ ، وأخيرا نشره الدكتور شوقى ضيف فى القاهرة عام ١٩٥١ .

معروفًا ومقريءًا فى الأندلس ، وعن الصولى فى أخباره ، وأخبار بغداد لابن طاهر ، فإذا كان الخبر من روايته أورده بصيغ مختلفة تبعًا لتمكنه منه ، فمرة « حدثنى غير واحد من وزراء إشبيلية » أو « أخبرنى من لا أدفع خبره من وزراء إشبيلية » أو « أخبرنى الفقيه أبو بكر ابن العربى » .

نقل ابن بسام كثيرًا عن ابن حيان ، ودان فى معظم ما أورده من أحداث تاريخية لمعلومات هذا الشيخ الباقعة ، وأورد له ترجمة ضافية ضمنها فصولا وافية عن أدبه ، وكان له فى الرجل رأى أورده واضحًا .

فهو يصفه بأنه « كان سهمًا لا ينمى رميه ، وبحرًا لا ينكش آذيه ، لو ثلب الماء ما نفع ، أو تعرض لابن ذكاء ما سطع ، يتناول الأحساب قد رسخت فى التخوم ، وأنفت على النجوم ، فيضع منارها ، ويطمس أنوارها ، بلفظ أحسن من لقاء الحبيب عقب الموعد ، وأمكن من غدر الطبيب عند العُوّد ، فرُبَّ شامخ بأنفه ، ثان من عطفه ، قد مرّ فى كتابه بفضل جرده لوضع حسبه ، وخلّد أحدوثة باقية فى عقبه ، فيرد ورود الظمآن الرنق ، ويلبسه لبس العريان الخلق » .

لكنه يرى أن التوفيق أخطأه فيما تحدث به فى تاريخه عن ملوك الطوائف فجاء كلامه كما قال ابن الرومى :

مهما تقلْ فسهام منك مرسلةٌ ... وفوكَ قوسُكَ والأغراضُ أعراضُ
وما تكلّمت إلا قلتَ فاحشةً ... كأنّ فكّيكَ للأعراضِ مِقْراض

« وكان عندهم بقرطبة خاتمة المتكلمين ، على ما تراه ركب من إثم ، واحتقب من ظلم ، وتناول من عرض ، وأطبق من سماء على أرض ، وأكثر ما وجدت من كلامه ففى الذم ، أحفى شباة قلمه ، وخلد أوابد كلمه ، ولو وجدت له فى سواه شيئًا أستشهد به على فضله ، وأجعله ذريعة إلى الثناء بنبله ، لكنت له أجمع وإليه أسرع » .

فإذا اقتضب من كلامه فصولاً كَنَّى عن أكثر مَا به صرّح ، وأعجم باسم من به أعرب وأفصح ، رغبة - كما يقول - بكتابه عن الشَّيْن ، وبنفسه أن يكون أحد الهاجَيْن ، إلا فى بعض أخبار ملوك الطوائف ، لما تعلق بذكرهم من فنون المعارف .

والحق أن ابن حيّان لم يكن هجّاء مفحشًا كما أراد أن يصوره ابن بسام ، نعم

كان صريحًا موغلا فى الصراحة ، تتكبّ طريقة كثير من المؤرخين المسلمين حين يتحرجون من ذكر المعايب جريًا وراء المثل القائل : « اذكروا محاسن موتاكم » فكان يذكر المحاسن لكنه لا يحجم عن ذكر المساوئ ، لا يوردها ملتوية تومئ وتشير ، وإنما يذكرها صراحة دون مواربة ، فى جرأة دون تردد ، وساعده على ذلك فى أيامه الأولى ، حماسة متقدة ، وشباب دافق ، ودويلات نافقة بالنقائص ، وفتن عامرة بالظلم ، فنظم أخبارها إلى وقته ، وجاء بها على وجوهها ، وأوردها على سوغها ، ناشرا مطاويها ، معلنا خوافيها ، غير محاب ولا خائف فى الصدق . فلما أوغل به العمر ، وتقدمت به السن . وغمرته عطايا بنى جهور ، وألحقه أبو الوليد محمد بن جهور بديوانه براتب واسع ، وهن منه العزم ، ولدن القلم ، فلم ير فى بنى جهور إلا الخير ، والحق أن دولتهم برئت من أوزار كثيرة شانت حكومات ذلك العصر فى دولة الأندلس .

جعل ابن بسام تحامله على ابن حيان مدخلا يعتذر به لنفسه عن أخبار كثيرة ومثيرة نقلها عنه وحذف أسماء من تتصل بهم ، حذف فيما يبدو كان دافعه الخوف وليس التعفّف ، فقد كان الرجل فى إشبيلية وافدًا غريبًا مهيض الجناح ، دون عصبة تحميه وتدفع عنه ، فكان عليه أن يعالج الأمور فى حذر وروية ، وإلا ساءت عاقبته ، وانتهى به المطاف كما انتهى برفيق له من قبل ، الفتح بن خاقان حين وجد مخنوقًا فى فندق لا يعرف له قاتل ،وقد تخلّل فصول الذم التى أوردها بعد أن كنى عن أصحابها « بفلان » فقرات صريحة الأسماء لأنها جاءت فى مقام المدح لها والتبجيل . كذلك ضمّن ما نقل عن ابن حيان أسماء ملوك الطوائف ، برغم رميه له بأن الصواب جانبه فيها ، لأنه خط مؤلفه فى ظلال دولة المرابطين ، فكان ما يكتب من هذا القبيل تبريرًا لما صنع هؤلاء معهم ، ودفاعًا عما قوضوا من بنيانهم .

ولكن حذف الأسماء أضاع القيمة التاريخية والتوثيقة للنصوص التى أوردها ابن بسام ، وهى – كما يستنتج منها – تمس أشخاصًا لعبوا دورًا هامًا فى حياة العصر ، سياسية أو أدبية أو اجتماعية ، وتحولت إلى بهرج لفظى لا طائل وراءه ولا معنى تحته ، فماذا نفهم نحن من قوله : « ومات فلان الغنى العبم ، حجة الله فى الرزق وغيظ الأنام . فنهض بريئًا من كل خلة جميلة إلى غنى غالب عليه ،

وكان أخوه مثله فى الأفن والجهل ، وكلاهما ممن استهينت به خطة الوزارة بحملها اسمها الخطير ، من غير تعلق بفضيلة فى حديث ولا قديم ، ولا معرفة بشىء من التعاليم » ؟ .

ويبدو أن ابن بسام لم يكن وحيدًا فى تردده إزاء كتب ابن حيان وإيراد فصولها على ما هى عليه ، وأن هناك آخرين كانوا يشاركونه هذا الاتجاه فيمسكون عن ترديد كتبه وإذاعتها ، ومن ثم بدأت تتوارى عن حلق الدرس ، وتختفى من حوانيت الوارقين فى وقت مبكر جدًّا ، لأن ابن بسام نفسه ، وكان فى إشبيلية بعد ستين عامًا من وفاة ابن حيان ، يذكر أن من بين مؤلفاته جزءًا كبيرًا فى مجلد ضخم ، أسماه « البطشة الكبرى » وصف فيه خلع ابن جهور عن قرطبة ، لكنه لم يقع عليه حتى لحظة تحريره كتاب الذخيرة ، وهو ظن يؤيده أن ابن حيان نفسه حاول أن يستأثر بما كتب لنفسه ، وأن يخبأه لولده ، وأن يضن به على الناس الذين أساءوا تفسيره ، لولا رغبة جاءته من المأمون يحيى بن ذى النون .

* * *

يمكن أن نتبين من الذخيرة **مذهب ابن بسام النقدى** مصرحًا به ، أو مستنتجًا من سكوته ، ويتبين الأول من نقده الإيجابى لما يورد من أبيات ، وهو عادة نقد عام ، دون ذكر تفاصيل أو توشيح بأسباب ، كقوله معقبًا على نثر ابن دراج القسطلى وإكثاره من شعره : « ونثر أبى عمر رحمه الله دون نظمه الرائق بكثير ، لذلك ما ألمعت منه بالشىء اليسير وعوّلت على عارض شعره المتين الغزير » .

وإذا أورد بيتًا من الشعر فأعجبه معناه ، أو استحسن لغته ، وقف عنده أحيانًا ، وذكر من سبق به ، وأشار إلى من زاد عليه أو نقص منه ، لكنه يلتزم فى توارد الشعراء على المعنى الواحد موقفًا متساهلاً ، جاريًا على قاعدة « أن ما يشترك فيه الناس ، وتجرى عليه طباع الشعراء ، لا يسمى مسروقًا ، لأن المعرفة به واحدة ، والإحساس به مشترك ، فقد تتوارد الخواطر ، ويقع الحافر حيث الحافر ، إذ الشعر ميدان ، والشعراء فرسان » .

ويقف **من الشعر كفن** موقفًا عنيفًا ، لم « يرضه مركبًا ، ولا اتخذه مكسبًا ، ولا ألفه مثوى ومنقلبًا » وحين يصدر حكمه يقدم له بأسباب تمس شكل الشعر ومضمونه ، ورسالة الشاعر ومكانته ، ودور الشعر وهدفه ، فيرى « أكثره خدعة

محتال ، وخلعة مختال ، جده تمويه وتخييل ، وهزله تدليه وتضليل ، وحقائق العلوم أولى من أباطيل المنثور والمنظوم » . وهو حكم ممرور كما ترى ، يحمل الكثير من الأسى ، ولعل دوافعه تكمن فى طبيعة العصر الذى تفتحت عليه عينا ابن بسام ، حين كانت الغاسلة تنتقل من ضفة النهر إلى العرش ، وينزع الملك من العرش إلى القبر ، أو يلقى به فى ظلمات المنفى ، عصر طابعه التناقض والتردّى والانهيار ، ونجد تفسيره واضحًا فى ألوان الشعر ونماذجه ، فلم يبرع الأندلسيون فى الشعر السياسى والحماسى وطبيعة الصراع تقتضيه ، ولم يوفقوا فى شعر الحكمة والرجل المستقيم يهواه ، وكان شعرهم الدينى نظمًا لا حرارة فيه ، وهو مطرب الصالحين وزاد التقاة ، ثم أسرفوا فى المدح ، وغالَوا فى التعظيم ، حتى قال فيهم ابن رشيق القيروانى :

مما يزهدنى فى أرضِ أندلسٍ أسماءُ معتصمٍ فيها ومعتضدِ
ألقاب مملكةٍ فى غيرِ موضعها كالهرّ يحكى انتفاخا صولة الأسدِ

من أجل ذلك زهد ابن بسام فى الشعر ، ثم تذكر أنه قاله ، وأخذ يحظ منه ، فاعتذر لنفسه عن نفسه : « بأنه إذا شعشعت راحه لم أذقه إلا شميمًا ، ولا كنت على الحديث إلا نديمًا » .

وكان له من الهجاء موقف وسط ، فجعله قسمين الأول : هجو الأشراف ، « وهو ما لم يبلغ أن يكون سبابًا مقذعًا ولا هجوًا مستبشعًا ، وهو طأطأ قديمًا من الأوائل ، وثل عرش القبائل ، وإنما هو توبيخ وتعيير ، وتقديم وتأخير ، كقول النجاشى فى بنى العجلان ، وشهرة شعره تغنى عن ذكره ، واستعدوا عليه عمر بن الخطاب وأنشدوه قول النجاشى فيهم ، فدرأ الحد بالشبهات[1] » .

---

(١) يشير إلى قصة بنى العجلان ، وكيف كانوا يفخرون بهذا الاسم لقصة كانت لصاحبه فى تعجيل قرى الأضياف إلى أن هجاهم النجاشى فضجروا منه ، وسبوا به ، واستعدوا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقالوا يا أمير المؤمنين هجانا ، فقال : وما قال ؟ فأنشدوه :

إذا الله عادى أهل لؤم ورقة فعادى بنى عجلان رهط ابن مقبل

فقال عمرو : إنما دعا عليكم ، ولعله لا يجاب ، فقالوا إنه قال :

قبيلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر : ليتنى من هؤلاء ، أو قال : ليت آل الخطاب كذلك ، أو كلامًا يشبه هذا ، قدلوا فإنه قال :

ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الوراد عن كل منهل

فقال عمر : أقل للسكاك ، يعنى الزحام ، قالوا فإنه قال :

ويمضى يعدّد قصصًا أخرى يستشهد بها على وجهة نظره . كقصة الزبرقان حين شكا احطيئة بسبب بيته :

دع المكارِمَ لا ترحل لبغيتها واقعدْ فإنك أنتَ الطاعمُ الكاسى

ووصية عبد الملك بن مروان لأسرته : احفظوا أحسابكم يا بنى أمية ، فما أود أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس ، وأن الأعشى قال فىّ :

تبيتون فى المشتى ملاء بطونكم وجاراتِكم غرثى يبتن خمائصا

وكيف أن علقمة بن علاثة ، وهو من القبيلة التى هُجيَتْ بالبيت ، بكى عندما سمعه وقال : أنحن نفعل هذا بجاراتنا ؟ ودعا على الشاعر .

أما القسم الثانى « فهو السباب » الذى أحدثه جرير وطبقته ، وكان يقول إذا هجوتم فاضحكوا . وهذا النوع منه لم يهدم قط بيتًا ، ولاعُيِّرت به قبيلة ، وهو الذى صفّا هذا المجموع عنه ، وأعفيناه أن يكون فيه شىء منه ، فإن أبا منصور الثعالبى كتب منه فى يتيمته ما شانه وسمه ، وبقى عليه إثمه » .

وهو فى ذلك يسير على نهج المدرسة العربية الجادة فى النقد ، كان أبو عمرو بن العلاء يقول : خير الهجاء ما تنشده العذراء فى خدرها فلا يقبح بمثلها . ويتفق معه فى الرأى القاضى الجرجانى صاحب كتاب « الوساطة بين المتنبى وخصومه » فيرى أن الهجو « أبلغه ما خرج مخرج التهزل والتهافت ، وما اعترض بين التصريح والتعريض ، وما قربت معانيه وسهل حفظه ، وأسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس . فأما القذف والإفحاش فسباب محض ، وليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن » . وكان لابن بسام نفسه مجموع من شعر الهجاء لم يصلنا لنعرف هل التزم فيه المنهج الذى طبقه فى كتابه « الذخيرة » أم أنه شاعر غيره ناقدًا ، وربما لم يهتم

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكل من كعب بن عوف ونهشل

فقال عمر : كفى ضياعا من تأكل الكلاب لحمه ، قالوا فإنه قال :

وما سمى العجلان إلا لقولهم خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر : كلنا عبد وخير القوم خادمهم . فقالوا : يا أمير المؤمنين هجانا . فقال : ما أسمع ذلك ، فقالوا : فاسأل حسان بن ثابت . فقال : ما هجاهم ، ولكن سلح عليهم ، وكان عمر رضى الله عنه أبصر الناس بما قال النجاشى ، ولكن أراد أن يدرأ الحد بالشبهات ، فلما قال حسان ما قال سجن النجاشى وقيل حده .

انظر : ابن رشيق القيروانى ، العمدة فى صناعة الشعر ونقده ، جـ ١ ص ٢٧ ، ٢٨ ، ط أولى ، طبعة أمين هندية ، القاهرة ١٣٤٤ = ١٩٢٥ .

بالحفاظ على الكتاب لأنه غير راض عن اتجاهه فيه .

لا نوافق ابن بسام فيما ذهب إليه ، لأنّ التقعيد لشيء والتأريخ لما كان شيئان جد مختلفان ، إنهما يمثلان ما يطمح إليه الإنسان من سيرة رضية ومثل أعلى ، وما يعيشه على الأرض واقعًا ، من حياة مستقيمة طورًا ، ومعوجة أطوارًا خرى ، وليس ثمة شك فى أن تسجيل الأمرين معًا يعيننا على تصور أوضح للعصر ومن عاشوا فيه ، وأنّ تعفف ابن بسام عن إيراد شعر الهجاء حرمنا من لون أدبى ربما كان الصدق فيه أكثر من غيره ، ولو نهج مؤرخو الأدب نهجه ، لكان أبسط نتائج هذا الاتجاه فقدان نقائض الفرزدق وجرير وهى مفتاح لفهم كثير من صراع عصرهما السياسى والقبلى .

* * *

وعرض ابن بسام لنشأة **الموشحات** وأثنى عليها ، ترجم لمن ارتـت على أيديهم ، ووزها بأن الأندلس موطنها ، فهم الذين نهجوا طريقها ، ووضعوا حقيقتها ، وهى أوزان كثر استعمالهم لها فى الغزل والنسيب ، تشق على سماعها مصونات الجيوب بل القلوب .

لكنه أعرض عن ذكرها ، فلم يضمّن كتابه على سعته وشموله بيتًا واحدًا منها ، وأوضح رأيه فى فقرة موجزة ، فقرر أن « أوزان هذه الموشحات خارجة عن غرض هذا الديوان ، إذ أن أكثرها على غير أعاريض العرب » .

هل كان الوزن وحده السبب ؟ .. لا أظن ذلك . لأن ابن بسام نفسه يقرر فى مكان آخر أن « الموشحات كانت تضم ألفاظًا عجمية وعامية » . وبدهى ن الوزن إلى جانب اللفظ ، وما يمثله الاتجاه نفسه ، لم يرضه وهو الأديب المتفنن ، والمسلم المحافظ ، إذ كانت الموشحات حتى أيامه تمثل – فيما يبدو – اتجاهًا شعبيًّ تقدميًّا ، مضادًا للاتجاه العربى المحافظ ، ومن هنا لم يفسح لها من كتابه مكانًا .

وأكاد أجزم أن الدوافع التى كانت وراء الموشحات هى التى أملت على ابن بسام تجاوزها ، وهى دوافع تتصل بالصراع الخفى بين القوى المتنافسة على أرض الأندلس ، أما الموشحات نفسها ، فقد كانت – باعتراف ابن بسام – مطربة أخاذة ، ووجود كلمات عامية أو لاتينية بها ، يمكن تجاوزه بحذفها مما يُورد فى مؤلفه ، أو بإيراد موشحات خالية منها أصلا ، وسنرى أن بعضها كذلك ، لكنه لم

يفعل ، ولم يكن الوحيد فى اتجاهه هذا ، فمعاصره ابن خاقان على الرغم من حياته غير التقية ، وعبه من مباهج عصره الحسية حتى الثمالة ، تجاهل حتى وجود الموشحات فلم يشر إليها ، مع أنه ترجم لبعض أعلامها فى كتابيه : « قلائد العقيان » ـ و « مطمح الأنفس » . ومما يعزز رأيى فى أن إهمال الموشحات من مؤرخى الأدب فى القرن السادس الميلادى ، كان مقاومة نفسية لحركة سياسية أكثر منه تعصبًا عقليًّا ضد اتجاه أدبى ، أنّ عبد الواحد المراكشى ، وكان معتدلا فى آرائه ، يقول ، وكان بصدد الحديث عن عبد الملك بن زهر : « وأما الموشحات خاصة فهو الإمام المقدم فيها ، وطريقته القصوى التى يجرى كل من بعده إليها ، هو آخر المجيدين فى صناعتها ، ولولا أن العادة لم تجر بإيراد الموشحات فى الكتب المجلَّدة المخلَّدة ، لأوردت له بعض ما بقى على خاطرى من ذلك[1] » .

وموشحات ابن زهر التى ترفع عبد الواحد عن تضمينها كتابه ، أورد لنا « المغرب فى حلى المغرب » من مؤلفات القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى ، جانبًا كبيرًا منها لحسن الحظ ، وهو شعر رائق جميل لا تتضمن أبياته أية كلمات عمية أو أعجمية ، وإليك واحدة منها على سبيل المثال :

أيُّها لساقى إليك المُشْتَكى كم دعْوناكَ وإنْ لم تسمعِ
ونديمٍ همتُ فى غرّتِهِ
وسقانى الراحَ من راحتِهِ
كلما استيقظ من سَكْرَتِهِ
جذب الزقَّ إليه واتّكى وسقانى أربعًا فى أربعِ
غصنُ بانٍ مالَ مِن حيث استوَى
باتَ مَن يهواه مِن خوفِ النوَى
خافقَ الأحشاءِ مضعوفَ القُوَى
كلما فكَّرَ فى البيْن بكَى يالَه يبكِي لِمَا لَمْ يَقَعِ
أيُّها المعرِضُ عما أصفُ
تعرفُ الذنبَ ولا تعترفُ
كبدٌ حرَّى ودمعٌ يكفُ

(١) عبد الواحد المراكشى : المعجب ، ص ٩١ ، ٩٢ .

مِثْلُ حالى حقُّه أنْ يشتكِى كمدَ اليأسِ وذلَّ الطمعِ
مـا لعَيْنِي شَقِيَتْ بـالـنـظرِ
أنكـرتْ بعدكْ ضـوءَ القمـر
فإذا ما شئتَ فاسمعْ خبـرى
عَشِيَتْ عيناى من طول البُكَا وبكى بَعْضى على بَعْضى مَعى
قـد بـرانى فى هـواكَ الكَمَدُ
يـا لقـومى عـذلـوا واجتهـدُوا
أنكـروا شكـوايَ ممَّـا أجـدُ
قـد نما حبُـكَ عندى وزكـا لا يـظنُ الحبُ أنَّى ٱدَّعِى[1]

وبقية موشحات ابن زهر تجرى على نهج هذه ، صادقة العاطفة ، هادئة الموسيقى ، متكاملة المعنى ، والقول بأنها جاءت على غير أعاريض العرب لا يفسر وحده الإضراب عن ذكرها ومثيلاتها .

وأخال ابن بسام فى ثنائه على الموشحات أولا ، ثم إعراضه عنها فيا بعد ، كان واقعًا تحت تأثير عاملين متناقضين يتجاذبانه ، عامل الزهو على المشرقيين فى دنيا الأدب ، بحدث أبدعه وطنه ، وعامل الخوف من تقوية اتجاه يضعف الروح العربى المتماسك ، تجاه عواصف الانقسام والفرقة والتفتت ، وكانت على أيامه تلف الأندلس من كل جانب ، فالتزم طريقاً وسطًا ، أثنى عليها وزاها بها ، وأمسك عن إيراد شىء منها !

* * *

كان ابن بسام معاصرًا للفتح بن خاقان ، صاحب « مطمح الانفس » ، و « قلائد العقيان » وكانا **يتشابهان فى وجوه كثيرة** ، أبسطها أن كليهما أنفق جهداً طيباً فى التأريخ لأدباء عصره ، على خلاف بينهما فى المنهج والطريقة .

كان ابن بسام يفوق الفتح بمراحل من ناحية تحريه للتاريخ الصحيح ، منحياً جانباً علاقته الشخصية بمن يترجم له ، لا يضفى عليه ثناء لا يستحقه ، ولا يجرده من تكريم هو به خليق ، أما ابن خاقان فأقحم فى كتابه ذاتيته ، إذا رضى عن

---

(١) المعجب فى حلى المغرب ، جـ ١ ص ٢٧٠ وما بعدها ، وانظر المراجع التى أشار إليها المحقق هناك .

إنسان رفعه إلى عنان السماء مادحاً ، وإذا غضب عليه هوى به إلى الحضيض ذامًّا ، كما حدث له مع ابن باجة (الوزير أبو بكر بن الصائغ) ، صلحت بينهما العلاقة فأغرقه مدحاً ، وساءت بينهما أخيراً فجرده من كل ما كساه أولا[1] .

وسجع الذخيرة وسط مقبول ، وراءه معنى ، ويمكن أن تخرج منه بشيء ، أما أسلوب الفتح فموغل فيها ، أجوف رنان ، يلعب بالألفاظ والاستعارات لعب البهلوان ، لا تعوزه الأخيلة البعيدة المطارح ، والصياغة الفنية ، والعبارات الجزلة الرنانة ، ذات الإيقاع الجميل .

وقد عقد المستشرق الهولندى رينهارت دوزى مقارنة بين الرجلين وانتهى إلى أنه لا مجال للمقارنة بين الكتابين ، فالذخيرة يتحدث عن نفسه ، بما تضمه مادته من فائدة حقيقية ، فهو يحوى – إلى جانب الفقرات القيمة التى نقلها من كتابات ابن حيان – قدراً عظيماً من المعلومات الجديدة الهامة عن حضارة الأندلس وتاريخ أدبه ، فى حين أن كتاب ابن خاقان أقل نفعاً فى هذا الباب ، وإن كان يحوى فوائد كثيرة على عكس ما يذهب إليه بعض الباحثين .

ومن حيث الأسلوب يستخدم كلا الكتابين السجع ، وإذا حكمنا عليهما فى ضوء قواعد البلاغة ، والذوق الأدبى للعرب ، ولهم كُتِبَا ، فإن السبق – فى رأى دوزى – يكون لابن خاقان .

ذلك أن ابن خاقان لا تعوزه الأخيلة البعيدة المطارح ، أو الصياغة اللفظية الفنية ، أو العبارة الجزلة الرنانة ذات الإيقاع الجميل . أما ابن بسام فنلحظ أنه يعانى بعض العسر والفقر فى هذا الجانب ، وابن خاقان أقرب منه إلى صفاء وأناقة الجملة العربية ، ولهذا كان كلامه أقرب من كلام صاحبه إلى نفوس معاصريهما . بيد أن هناك ناحية على أعظم جانب من الأهمية سبق فيها ابنُ بسام على نحو لا يمارى ، هى تفوقه فى سعة الاطلاع والثقافة الأدبية . وفى الواقع كان ابن بسام على حظ من علم لم يبلغ مداه غير القلائل . تمثل تاريخ العرب القديم وحفظ أشعارهم وأمثالهم السائرة ، على حين لم يتعمق ابن خاقان فى هذه الناحية

---

(١) يوجد مدح ابن خاقان لابن باجة فى نفح الطيب للمقرى ، جـ ٩ ص ٢٣٦ – ٢٣٧ ، طبعة محيى الدين القاهرة ١٩٤٩ م ، ويوجد الذم فى كتابه « قلائد العقيان » ص ٣١٣ ، طبعة التقدم ، القاهرة ١٣٢٠ هـ .

إلا قليلا ، ومن ثم فإن القوة وجمال التعبير يعوزانه كلما وصل بالكلام إلى موقف عسير ، فيتخبط فى مهاوى الجهل أحياناً . وثقافة ابن بسام الغزيرة تجعله يقارن بكثرة بين شعر معاصريه وشعر القدامى ، ويشير إلى المواضع التى قلد فيها المتأخرون السابقين ، ويروى للقارئ طرفاً من التاريخ الذاهب إذا دعت المناسبة ، مما يجعل كتابه أعظم فائدة ، وقراءته أكثر إمتاعاً[1] . وقد أوجز أبو محمد الحجارى ، من علماء الأندلس فى القرن السادس الهجرى ، الثانى عشر الميلادى ، هذا الرأى فى كتابه « المسهب فى غرائب المغرب » فعقد مقارنة بين الرجلين وانتهى إلى أن « ابن بسام أكثر تقييدًا ، وعلمًا مفيدًا ، والفتح أقدر على البلاغة ، وكلامه أكثر تعلقًا بالأنفس »[2] .

وكان معاصرًا لابن بسام ، وحذا حذوه ، أديب مشرقى ، نشأ فى أصفهان ، ودرس فى بغداد ، وعمل فى واسط ، وعاش فى دمشق ، هو **العماد الأصفهانى** ، (أبو عبد الله محمد بن صفى الدين ت ٥٩٧ هـ = ١٢٠٠ م) ، كان على ديوان الإنشاء للسلطان نور الدين ، وتعرف بصلاح الدين وتقرب إليه وأحبه ، واشتهر بالكتابة المسجعة البليغة ، وألف « خريدة القصر وجريدة أهل العصر » ، وجعلها أقسامًا على نحو ما صنع الثعالبى فى « يتيمته » ، وابن بسام فى « ذخيرته » ، وإن كان الأخير قد وقفها ، فى مجملها ، على كور الأندلس وحدها ، وقد جعل العماد القسم الأول منها لشعراء العراق، و لثانى لشعراء الشام ، والثالث لشعراء مصر وصقلية والقيروان والمغرب والأندلس .

كان العماد مؤتسيا بمواطنه الثعالبى ، وأقرب الظن أنه لم يقرأ الذخيرة ، فهو لا يعرض لها بين المصادر التى أخذ منها ، على الرغم من أن وفاته جاءت بعد وفاة ابن بسَّام بنحو من نصف قرن ، وأن الذخيرة وصلت المشرق فقام باختصارها مواطن معاصر له على نحو ما سنعرض له فيما بعد ، ولو أنه تحدث عن شعراء أندلسيين ومغاربة تحدث عنهم ابن بسام ، وإن كان الأخير فى تراجمه لهم أطول نفسًا من العماد ، ولمَّا كان العماد الأصفهانى مؤتسيًا فى عمله بالثعالبى ، فقد وقع فى نفس التقصير الذى وقع فيه ، حين قصر كتابه على مختارات شعرية ، وأهمل

---

(١) Conzalez Palencia, Angel : Historia de la Literatura Arabigo- Espanola, p. 204

(٢) عن « المغرب فى حلى المغرب » حـ ١ ص ٢٦٠ ، ط ثانية .

ذكر الأحداث والوقائع التاريخية التى تمس مَنْ ترجم لهم من الأدباء ، وتوضّح حياتهم على نحو أفضل ، وهو خطأ استفاد منه ابن بسام وتجنبه ، ومن ثم كانت الخريدة كاليتيمة ، فائدتها أدبية أكثر منها تاريخية ، ولو أن الرواية عند العماد أوسع منها عند ابن بسام ، فكان وهو بالعراق يتسقط ما جريات مصر وأخبار الحركة الأدبية فيها استنادًا إلى رواية علماء أو أدباء عراقيين من بغداد أو غيرها من الحواضر العراقية ، لقيهم فى الدرس أو العمل ، فأفرد فى كتابه فصلا عن « جماعة كتبت ما نقل إلىَّ من شعرهم بالعراق » وأحيانًا يستخدم نفس الطريقة فى رواية شعر الأندلسيين ، وكان لمنصبه دخل فى ذلك ، بل كان يرتاد الأسواق والمجالس والطرق بحثًا عن طلبته .

ويلتزم العماد تكلف السجع ، كما أنه عنى بترجمة أهل جيله أو جيل أبيه وعمه . ويخالف ابن بسام بذكر مآخذه ومصادره من مصنفات الأدباء الذين عاصرهم ، أو من شيوخه ، مصريين وعراقيين وشاميين ومغاربة وأندلسيين ، ويتحدث عن شيوخه ،ويبدو لك وأنت تقرأ كتابه أن جهده لا يعدو الجمع والنقل والتبويب ، أما ابن بسام فيفضل ترك المصادر والمآخذ ، ولا يعنى بهذه الناحية ، ويبدو لمن يتصفح كتابه أنه كثير الاعتداد بنفسه ، مبسوط الحديث عنها .

* * *

لم تكن الذخيرة كل ما ألف ابن بسام ، وإنما أفضلها بلا شك ، لأنها عرضت للأندلس كله على حين أن بقية مؤلفاته الأخرى كانت وقفًا على أشخاص معينين ، وقد حفظ لنا التاريخ أسماء بعضها ، وذهب بالمؤلفات نفسها ، وربما بأسماء لكتب أخرى لا نعرف عنها شيئًا فمن مؤلفاته :

( ) الاعتماد على ما صح من أشعار المعتمد بن عباد[1] .

---

(١) المعتمد بن عباد أشهر من أن يُعرف ، وقد أورد عنه ابن بسام معلومات ضافية فى القسم الخاص فى الذخيرة ، بالجانب الغربى من الأندلس ، وتحدث عنه الفتح بن خاقان حديثًا طويلا فى قلائد العقيان ، كذلك أورد عنه المقرى معلومات متناثرة فى كتابه « نفح الطيب » ، وعبد الواحد المراكشى فى المعجب ص ١٠١ وما بعدها وقد جمع شعره وحققه الدكتور أحمد أحمد بدوى ، والدكتور حامد عبد المجيد ، ونشر فى القاهرة ، وتناول الأدباء المحدثون حياته بالدراسة على نحو شامل ، قصة ورواية وشعرًا وبحثًا ، فكتب على أدهم « المعتمد بن عباد » ، وعنه كتب على الجارم قصته الرائعة « شاعر ملك » .

٢ – كتاب الأكليل المشتمل على ذكر عبد الجليل (بن وهبون) [١] .

٣ – سلك الجواهر فى ترسيل ابن طاهر (محمد بن أحمد بن إسحاق بن زيد أبو عبد الرحمن)[٢] .

٤ – تحية الاختيار من أشعار ذى الوزارتين أبى بكر بن عمار[٣] .

٥ – مجموع من شعر الهجاء قاله ابن بسام نفسه ، مما لم يذعه بين لناس .

تبقى مشكلة تتصل بكتاب الذخيرة ، هل ألف ابن بسام الكتاب بنفسه أم كان إملاء منه لتلاميذه ؟ هل أكمله فى حياته وأعطاه الطابع الذى وصلنا به أم تركه فصلا تولى من بعده إعدادها وترتيبها .

يبدو لى أن الكتاب فى صورته الأخيرة ليس من صنع الرجل ، وإن أطلق عليه فى تضاعيف كلامه اسم مؤلف ومجموع وكتاب ، فهو يبدأ فقراته بقوله : قال أبو الحسن ، أو قال ابن بسام يشير إلى نفسه ، وهى طريقة لم تكن معروفة فى عصره ، فلا نجدها مثلا عند معاصرة الفتح بن خاقان ، ولا فى الكثرة الغالبة من كتب التراث التى وصلت إلينا ، والكتاب الذى يسير على هذا النهج هو « تاريخ افتتاح الأندلس » لابن القوطية ، وقد انتهى الرأى فيه إلى أنه محاضرات أملاها المؤلف على طلابه ، وقاموا هم بجمعها من بعده وصنعوا منها كتابًا . فلم لا يكون الأمر كذلك فى كتاب ابن بسام ؟ صحيح أن الكتاب غزير المادة ، وافر المعلومات ، ولم يعرف عن مؤلفه أنه احترف التدريس أو جلس إلى طلاب ، كما أن الصناعة فى أسلوبه ، والتزام السجع فى كتابته ، يومئ بأنه وليد تفكير طويل ، وتحبير مستأن ، فلم يبق غير الظن بأن الرجل ترك الكتاب فصولا معدة ، وأن غيره قام بإعدادها وأضاف إليها ما أراد .

ومن غير هذا الظن ، وأكاد أقول اليقين ، لا نستطيع فهم الفقرة التالية بصدد الحديث عن ابن زيدون : « وله – أى ابن زيدون – من رسالة حذف أبو الحسن رحمه الله هنا أكثرها ، ولم يذكر منها إلا فطرة من وابل ، أو نفثة من سحر بابل ،

---

(١) ترجم له عبد الواحد المراكشى فى المعجب ص ١٠٢ . والفتح فى القلائد ص ٢٥٣ ، والمقرى فى نفح الطيب ، جـ ٢ ص ١٧٩ ، طبعة محيى الدين ، وابن شاكر الكتبى فى فوات الوفيات جـ ص ١٥٣ ترجمة رقم ٢٠٢ ، القاهرة ١٩٥١ .

(٢) انظر ترجمته فى : ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ ٢ ، ص ١١٨ .

(٣) ترجم له عبد الواحد المراكشى فى المعجب ص ١١١ وما بعدها .

وها أنا مثبتها على تواليها ، إشادة بحسن معانيها ، واستفادة من سنىّ آدابه فيها »[1] .

من المحال أن يكون ابن بسام هو الذى كتب هذا الكلام ، وإن جرت فى السجع على مذهبه ، وحاكت فى القول أسلوبه وطرائقه ، ويزيد من أهميتها أنها واردة فى كل ما لدينا من مخطوطات الكتاب . إلا أن يكون « أبو الحسن » هذا شخصاً آخر غير ابن بسام نفسه ، ويتفق معه فى الكنية ، وأحد مصادره التى ينقل عنها ، وهو احتمال لم يقم عليه دليل .

وشبيه بها فقرة أخرى جاءت أيضًا فى تضاعيف الحديث عن ابن زيدون ، ونصها : « ومما أغفل ابن بسام من نسب أبى الوليد الصحيح الأقسام ، النازح عن الأطماع والأوهام ، المصدق قول الجعفرية فيما ينص من الإلهام ، قوله .. إلخ »[2] وهو نص واضح الدلالة فى أن كاتبه شخص آخر غير ابن بسام ، زل به قلمه فهدى إليه ، واحتمال أن يكون غير أبى الحسن هو الذى أعطى الكتاب طابعه الأخير ، أقرب إلى المعقول من القول بأن متطفلا أضاف هذه الفقرات على الكتاب ، فهذه كسابقتها واردة فى كل ما لدينا من مخطوطات ، والمخطوطة الوحيدة الخالية منها ، بها خرم فى نفس المكان ، يبدأ بهذه الفقرة ويمتد بعدها إلى صفحات .

هذان مثلان استخرجتهما من مجلد واحد ، فى قسم واحد ، مما نشر من الكتاب . ولو درسنا بقية أقسامه فى مخطوطاتها – أمر ليس فى مكنتى لعدم توافرها لدى – على نحو مستأن لوجدنا ما يعزز هذا الرأى وينتهى بنا فى الأمر إلى يقين .

نشر من الكتاب القسم الأول فى مجلدين ، والمجلد الأول من القسم الرابع ، قامت على نشره لجنة من جامعة القاهرة ، وطبعت لجنة التأليف والترجمة والنشر أول مجلداته عام ١٩٣٩ ، وقد بذلت اللجنة جهداً طيبا مشكوراً فى ضبط كلماته ، وإقامة نصه ، فجاء مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا اضطراب ، لكنها أغفلت شرح ما عثر من كلماته ، والتعريف بما غمض من أعلامه ، وتحديد ما نجهل من أمكنته ،

---

(١) الذخيرة ، ق ١ م ، ص ٣٤٤ .

(٢) الذخيرة ، ق ١ م ١ ص ٣٧١ .

وخلا من الفهارس التفصيلية خلوًّا تامًّا ، وربما كان لها فى هذا النقص الأخير مندوحة ، لأنها بدأت العمل فى الكتاب وفى عزمها أن تنشره كله ، فآثرت ترك الفهارس إلى آخره ، ولكن مضىَ الزمن ، ولمَّا تزل أغلب أقسام الكتاب مخطوطات فى أضابير المكتبات !

وأخيرا نشر الدكتور إحسان عباس الكتاب كله فى طبعة تجارية ، وهو جهد طيب يحمد عليه ، ولكن الكتاب لما يزل فى حاجة إلى طبعة علمية محققة ، تجعل الفائدة منه ميسورة للباحثين .

* * *

نالت الذخيرة شهرة واسعة فى زمن مبكر ، فبعد كتابتها بنحو من خمسين عاماً ؛ بدأ **ابن مماتى** (أسعد بن مهذب) ، وقد ولد فى نفس العام الذى توفى فيه ابن بسام (٥٤٢ هـ = ١١٤٧ م) يختصرها بأمر من الوزير نور الدين ، وجعل لها عنواناً « لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة » .

وكان شيخ العروبة **أحمد زكى باشا** يملك مجلداً يضم تصويراً لمخطوطتين ، إحداهما « رايات المبرزين وغايات المميزين » لابن سعيد المغربى (أبو الحسن على بن موسى بن عبد الملك) ، والثانى مختصر الذخيرة لابن مماتى ، وفى رأى شيخ العروبة أن النسخة المصورة نقلت من أصل كان يوجد بأحد مساجد القسطنطينية داخل صندوق ، إلى جانب كتب أخرى ، بدون أن يمسها أحد ، وقد نقلت من القاهرة عندمافتح سليم الأول المدينة عام ١٥١٧ ، أما المستشرق الإسبانى إميليو غرسية غومث ، وكان قد اطلع على تصوير المخطوطتين ودرسهما ، فيرى أن أصل المخطوطة لابد أن يكون موجوداً بإحدى مكتبات القسطنطينية فعلا ، لكنه يرى أن الأصل كتب فى تاريخ متأخر على فتح السلطان سليم لمصر ، وقد قام المستشرق الإسبانى بنشر الكتاب الأول مع مقدمة له وترجمة إلى الإسبانية ونشر فى مدريد عام ١٩٤٢ ، أما مختصر الذخيرة فلم ير النور بعد .

كذلك توجد مخطوطة أخرى لنفس الكتاب فى مكتبة لينجراد ، آلت إليها من مجموعة الشيخ الطنطاوى ، وهى أحدث نسخاً من مخطوطة القسطنطينية إذ يرجع

تاريخها إلى عام (١٢٥٥ هـ - ١٨٣٩ م)[١] .

هذا وقد عُنِيَ الرُّعيني الإشبيلي ، المتوفى ٦٦٦ هـ = ١٢٦٧ م ، بوصل ما انتهت إليه الذخيرة ، فألّف كتابا كبيرا أسماه « جنى الأزاهر النضيرة ، وسنى الزواهر المنيرة ، فى صلة المطمح والذخيرة ، مما ولّدته الخواطر من المحاسن فى هذه المدة الأخيرة » ، وهو كتاب لمّا نعثر عليه .

ويذكر الرعينى فى برنامجه أن معاصره الخَذُوج ، يحيى بن إبراهيم ، كان يحترف النسخ ، يعنى بالأدب ، وأنه لخّص الذخيرة فى كتاب أسماه « الخِيرة من الذخيرة » ، ولست أعرف أنه وصلنا .

---

(١) لمزيد من المعلومات عن مختصر الذخيرة انظر Carcia Comez فى :

- مقدمة كتاب « رايات المبرزين وغايات المميزين » ، ص ١ إلى ٢٧ ، طبع مدريد ١٩٤٢
- ابن سماق مختصر الذخيرة ، مجلة الأندلس ، المجلد الثانى ، ص ٣٢٩ - ٣٣٦ ، مدريد ١٩٣٤

وانظر Kratchkovsky. i. فى :

- مخطوطة من « لطائف الذخيرة » لابن سماق فى ليننجراد ، مجلة الأندلس ، المجلد الثالث ، ص ٨٩ - ٩١ مدريد ١٩١٥ .
- Avec les Manuscirts Arabes, irad . francaise, par M. Canard, p. 160 - 161 , Alger 1954

○ مختارات من كتاب « الذخيرة » :

إيجاز الخبر عن إمارة علىّ بن حمّود

قال أبو مروان : هو علىّ بن حمّود بن ميمون بن حمّود بن على بن عُبيد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهم .

وذكر ابن قتيبة أنّ نفراً من ولد إدريس بن عبد الله بن حسن أيام طلبه الرشيدُ فحبسه عند جعفر بن يحيى فرّوا إلى المغرب فوقعوا ببلاد أفريقية ، ثم رفضتهم آفاقها إلى طرف بلاد البربر فنكحوا إليهم وتبربروا معهم .

قال أبو الحسن : وقد بلغنى أن عقبهم إلى اليوم هنالك وقد قدّمت فيما نقلته من كتاب ابن حيّان فى أخبار الخليفة سليمان السبب الذى أوطأ لعلىّ بن حمود نَبجَها ، وأوضح له منهجها ، حتى خرج من عمائها ، وعرج إلى سمائها . ونكتب ها هنا ما نصّه أيضاً أبو مروان من كيفية مقتله وخبره ، بقرطبة أوله وآخره ، بعد أن نبرأ من التطويل ، ونحذف إن احتجنا إلى ذلك بعض الفصول .

قال ابن حيان : بويع علىّ بن حمودّ فى باب السدَّة من قصر قرطبة يوم الاثنين لسبع بقين لمحرم سنة سبع وأربعمائة ، ثانىَ اليوم الذى أدرك فيه بثأر هشام المؤيَّد ، ولم يتخلف أحد عن بيعته ، ووصلوا إليه على طبقاتهم ، فكرم منازلهم ، وأجمل خطابهم ، وتسمَّى ليومه من الألقاب السلطانية بالناصر لدين الله : لقبٌ قد سبقه إليه بالمشرق أبو أحمد بن المتوكل العباسى ، وتبعه فيه عبد الرحمن بن محمد بهذا الأفق[1] .

---

(١) القسم الأول ، المجلد الأول ، ص ٧٨ و ٨٨ .

فصل فى ذكر الفقيه القاضى أبى الوليد المعروف بابن الفرضى

شاعر مقلّ ، هو فى العلماء أدخل منه فى الشعراء ، ولكنه حسن النظام ، مقترن الكلام ، رحل ورُحِل إليه ، وأخذ وأخِذَ عنه .

أخبرنى الفقيه أبو بكر ابن الفقيه الوزير أبى محمد بن العربى عن الفقيه أبى عبد الله الحميدى قال : حدثنى الفقيه أبو محمد على بن أحمد بن حزم قال : أخبرنى القاضى أبو الوليد بن الفرضى قال : تعلّقت بأستار الكعبة وسألت الله الشهادة ثم انحرفت وفكرت فى هذا القيل فندمت ، وهممت أن أرجع فأستقيل الله ذلك فاستحييت . فمات مقتولا رحمه الله فى الفتنة أيام دخول البرابرة قرطبة سنة أربعمائة . قال أبو محمد بن حزم : أخبرنى من رآه بين القتلى يومئذ وهو فى آخر رمق يقول : « لا يكْلَم أحد فى سبيل الله – والله أعلم بمن يكلم فى سبيله – إلا جاء يوم القيامة وجرحه يَثعَبُ دماً ، اللون لون الدم والريح ريح المسك » . كأنه يعيد على نفسه الحديث الوارد فى ذلك ، ثم قضى نحبه هنالك . وهذا الحديث فى الصحيح أخرجه مسلم بن الحجاج مسنداً عن النبى صلى الله عليه وسلم . وأخبرنى الفقيه المذكورة عن الحميدى قال : أنشدنى الفقيه أبو عمر بن عبد البر ، قال : أنشدنى أبو الوليد بن الفرضى شعره فى طريقه إلى المشرق فى طلب العلم ، وكان كتب بها إلى أهله ، حيث يقول :

مضتْ لى شهورٌ منذ غبتمْ ثلاثةٌ ... وما خلتنى أبقى إذا غبتمُ شهرَا
ومالى حياةٌ بعدكم أستلذُّها ... ولو كان هذا لم أكن بعده حُرًّا
سأستعتبُ الدهَر المفرّقَ بيننا وهل ... نافعى أن صرتُ أستعتبُ الدَّهرا ؟

.....

والبيت الأول من هذا ينظر إلى قول أبى عبد الله بن شرف القَرَوِى :

فارقتهمْ لا لملالٍ ولا ... قِلى ولكن للخطوبِ الكبارْ
ستة أعوامٍ وما كان لى ... فى فرقة الأيام عنهم قرارْ

وقال أبو مروان ابن شماخ :

صبرتُ والبعْد أحوالٌ وذا عجبٌ ولم أكن صابراً والبعد أميال[1]

فصل فى ذكر الأديب أبى القاسم خلف ابن فرج الإلبيرى المعروف بالسميسر

وكان باقعة عصره ، وأعجوبة دهره ، وهو صاحب مزدوجٍ كأنه حا فيه حذوَ منصورٍ الفقيه ، وله طبع حسن ، وتصرف مستحسن فى مقطوعاته الأبيات ، وخاصة إذا هجا وقدح ، وأما إذا طوّل ومدح ، فقلّما رأيته أفلح ولا أنجح ، وقد أثبتُّ من ذلك بعض ما تخيرته له هنالك . وله مذهب استفرغ فيه مجهود شعره ، من القدح فى أهل عصره ، صنت الكتاب عن ذكره . ألا تسمع إلى قوله :

ألا قُلْ لأهلِ القيروانِ لِحاكُمُ وأستاهُكُمْ هانت عليكم فهنْتُم
فأستاهكمْ تعطونها ولِحاكُمُ تعَفّونها بالحَلْق طُراً لُعِنْتُم

والسميسر فى هذا كما قال القائل :

عابنى من معايبٍ هى فيه خالِدٌ فاشتفى بها من هجائى

أو كما قال الآخر :

ويأخذ عيب الناس من عيب نفسه مُرادٌ لعمرى ما أرا قريبُ

لكنه ليست ضعة المرء فى نفسه بمذهبة جوهرية الأدب فى الإنسان ، وقد أومأ إلى ما كانت عليه حاله بقوله : .

حسّى صحيحٌ ولكنْ هوايَ يُوهن حسّى
فصحّ رأى لغيرى ولم يصح لنفسى[2]

---

(١) القسم الأول ، المجلد الثانى ، ص ١٣٠ - ١٣١ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٧٢ - ٣٧٣ .